محمد زايد

الراوى هو الشعراوى

مذكرات إمام الدعاة

دار الشروق

مذكرات
إمام
الدعاة

الطبعـة الأولـى
٢٧ يونيـو ١٩٩٨

الطبعـة الثـانيـة
٣ يوليـو ١٩٩٨

الطبعـة الثـالثـة
٢٥ يوليـو ١٩٩٨

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مقـــدّمة

أروى للأخ الصديق محمد زايد فى صفحة اهتمامات الناس فى حلقات مسلسلة أسبوعياً ، عندما يمن الله على عبده بقدر من التحسن فى صحته ، وبمنحه بعضًا من عفوه وعافيته ، حكاياتى مع الزمان أو حكايات الزمان معى منذ كنت تلميذًا فى كتاب قريتى «دقادوس » ، إلى أن بلغت ما يعرفون ، وسوف ننشر حصيلة كل ذلك فى كتاب إن شاء الله.

محمد متولى الشعراوى

رحلة حياة زاخرة بالعلم النافع

فضيلة الإمام الأكبر
محمد سيد طنطاوى ـ شيخ الأزهر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه وبعد : فهذه مذكرات لشيخنا وأستاذنا محمد متولى الشعراوى ـ طيب الله ثراه ـ رواها للأستاذ الفاضل محمد زايد .

وقد سعدت بقراءتها فرأيت فيها رحلة حياة زاخرة بالعلم النافع ، وبالكفاح المتواصل من أجل خدمة الدين والفضائل والوطن .

تحدث فيها شيخنا عن حفظه للقرآن الكريم فى كُتّاب «الشيخ عبدالرحمن» ، وعن محاوراته مع شيخه ومع والده ـ رحمهما الله ـ

وتحدث فيها شيخنا عن تأثره بحفظ القرآن الكريم ، وعن حبه له ، وعن الإرشادات الحكيمة التى تعلمها من شيخه «الشيخ عبد الرحمن» ، وعن الضربات التى بقى أثرها فى نفسه إلى زمن طويل .

وتحدث فيها شيخنا عن مجالس العلم التى كان يهواها ويهوى الاستماع إلى المناقشات التى تدور فيها ، كما حدث بين الشيخ عبدالعزيز رئيس قسم الوعظ بمدينة «ميت غمر» وبين والد الشيخ الشعراوى ـ رحمهما الله ـ .

وتحدث شيخنا عن أشعاره التى جادت بها قريحته فى مطلع حياته، وكانت تمتاز بخفة الظل، وكيف أن الناس كانوا يتلقونها بالسرور والابتهاج.

وتحدث شيخنا عن زهده فى الالتحاق بالأزهر، وعن إصرار والده - رحمه الله - على التحاقه بالأزهر، وعن المطالب العسيرة التى يطلبها من والده لكى يثنيه عن التحاقه بالأزهر، إلا أن الأب الفاضل كان مصرا كل الإصرار على إلحاق ابنه بالأزهر ليكون عالما من علمائه.

وتحدث شيخنا وهو فى السنة الثالثة الابتدائية عن مطالبه من والده أن يشترى له كتبا ضخمة، وكان قصده من والده أن يمتنع عن ذلك، ولكن الوالد خيب ظنه، فاشترى له ما أراد من مراجع ضخمة.

وتحدث شيخنا فى مذكراته عن رؤيته لأول مرة للزعيم سعد زغلول، الذى كانت قريته مجاورة لقرية شيخنا، وعن قصة وقوعه من فوق حماره، وعلاجه فى قرية «دقادوس» التى كانت بها أسرة مشهورة بجبر الكسور.

وتحدث شيخنا عن مساجلاته مع الشاعر «عبدالحميد الديب» وكيف أنه رد عليه بأنه يجيد فى شعره الغزل المتورع، والهجاء اللاذع لمن يستحقه.

وتحدث شيخنا عن مشاركته فى الثورات الوطنية بشعره وبنثره، وكيف أنه ألف القصائد الطويلة، وكتب المقالات الكثيرة، التى أدت به إلى دخول السجن لمدة شهر.

كما تحدث فضيلته عن نقله من معهد الزقازيق إلى معهد الإسكندرية، بسبب معارضته لكثير من الأمور التى كانت تجرى فى الأزهر...

ثم عن محاوراته مع السيد جمال سالم عند ما زار الأزهر.

كما تحدث فضيلته عن محاوراته مع أمير الشعراء أحمد شوقى - رحمه الله -

وتحدث فضيلته عن زعامته للطلاب ، وعن قصة زواجه ، وعن رحلته مع الحياة مدرسا بالأزهر ، ثم بالسعودية ، ثم عن أحواله المختلفة بعد ذلك .

والحق أن هذه المذكرات هى دروس زاخرة بتجارب الحياة ، التى يجب على كل عاقل أن يستفيد منها ما ينفعه فى دينه وفى دنياه .

رحم الله شيخنا إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، وألحقنا به مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

عظيم من القلة التى تزدهر بهم الحياة

د. محمود حمدى زقزوق - وزير الأوقاف

كثيرون يأتون إلى هذه الدنيا ويخرجون منها دون أن يشعر بهم أحد، ودون أن يكون لهم فيها أثر أو ذكر. وقليل من الناس تزدهر بهم الحياة، ويملئون الدنيا عطاء بفضلهم وعلمهم وما يقدمونه من خير للناس. وهؤلاء هم العظماء الذين بهم ومعهم يكون للحياة معنى. فهم المصابيح الهادية، وهم الزهور التى تنشر أريجها فى كل مكان فتنعش النفوس بالبهجة، وتجعل الناس يشعرون بقيمة الحياة وبقيمة الإنسان.

وإذا كان ذلك ينطبق على العظماء بصفة عامة فإن عظماء الدين لهم شأن آخر، وذلك لما يمثله الدين من عمق عميق فى النفوس ومكانة راسخة فى القلوب. ومن هنا فإن الأثر الذى يتركه هؤلاء فى نفوس الناس وعقولهم يعد أثراً بالغ الأهمية فى توجيه فكر الناس وسلوكهم وموقفهم من الحياة والمجتمع والكون بصفة عامة.

ومن هؤلاء العظماء الأفذاذ كان عالمنا الجليل إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى - رحمه الله ورضى عنه - فقد عرفناه علما من أعلام الفكر الإسلامى المعاصر وقطبا من أقطاب المفسرين العظام لكتاب الله على هدى وبصيرة، بأسلوب فريد يأخذ بالألباب ويأسر القلوب والعقول، مما جعل

الناس يلتفون حوله، يغترفون من علمه الفياض، وينتفعون بخواطره الإيمانية، وإشراقاته الروحية، التى تنطلق من قلب مخلص عامر بالإيمان مفعم بالحب لله، فتدخل بيسر وسهولة إلى قلوب الملايين من مريديه ومحبيه فى مصر والعالمين العربى والإسلامى. فقد حباه الله بنعمة القبول لدى الناس، والقدرة الفائقة على تبسيط حقائق الدين وأسرار القرآن حتى تكون مفهومة لجميع الناس من كل المستويات الثقافية.

ولم يكن الشيخ الشعراوى مجرد عالم دين يفتى ويفسر القرآن الكريم، فما أكثر العلماء الذين يقومون بهذه المهمة، وإنما كان يمثل ظاهرة فريدة فى مجال الدعوة الإسلامية يندر أن يجود الزمان بمثلها.

لقد امتد عطاء الشيخ الشعراوى إلى أكثر من نصف قرن من الزمان، فى عصر اختلطت فيه المفاهيم، واضطربت فيه الرؤى الدينية، ورأينا أدعياء العلم الدينى يزيفون الحقائق، ويميلون بالدين إلى فهمهم السقيم، ويجذبونه إلى فكرهم المريض، فكان الشيخ الشعراوى نجما ساطعا يضىء فى سماء الأمة يجلجل صوته بالحق فيزهق باطل الأدعياء.

وقد ظل يجاهد بفكره وعلمه وقلمه حتى آخر رمق فى حياته. ولم يمنعه المرض من الاستمرار فى أداء رسالته الدينية التنويرية التى نذر لها كل حياته وكل ذرة فى كيانه.

لقد تعلقت قلوب الملايين وعقولهم فى أرجاء عالمنا العربى الإسلامى بهذا الشيخ الجليل. وكان تعلقهم به وحبهم له وتشوقهم للاستماع إليه والاغتراف من فيض علمه شىء يفوق التصور ويجل عن الوصف. وقليل من الناس الذين يذكرهم التاريخ يحظون بمثل هذه المكانة الرفيعة والمنزلة الجليلة. ولم يدخر الشيخ وسعا ولم يأل جهدا فى التجاوب إلى أبعد الحدود مع هذا الحب

الغامر من جماهير الناس . فلم يبخل عليهم بشيء مما أفاضه الله عليه من علم مهما كلفه ذلك من مشاق ، بل كان ـ فى أثناء مرضه ـ ينسى مرضه وينـدفع كالسيل الجارف فى عطائه العلمى وخواطره الإيمانية يحيى موات القلوب ، وينعش العقول ، ويضيىء جوانب النفوس ، فيجدد فيها الأمل ويملؤها بالطمأنينة ، ويقربها من خالق الكون ورب الوجود .

لقد كان الشيخ ـ رحمه الله ورضى عنه ـ ودودا ، بسيطا ، متواضعا ، بشوشا ، سخيا ، مخلصا . وكان هذا الإخلاص هو سر عظمته ، وفى الوقت نفسه هو سر نجاحه فى أداء دوره القدرى فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ أمتنا الإسلامية .

وإذا كان الشيخ قد رحل عن دنيانا ليلقى ربه الذى طالما تشوق للقائه واستعد لهذا اللقاء فإن عزاءنا فيه ما تركه لنا من علم غزير تنتفع به الأجيال المتعاقبة .

فوفاة الشيخ إذن ليست نهاية العهد به . فذكراه خالدة مصداقا لحديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [إذا مات الميِّت انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له] .

وقد اجتمعت للشيخ الشعراوى هذه الفضائل الثلاثة : الصدقة الجارية ، والعلم الذى ينتفع به الناس ، والذرية الصالحة التى تدعو له بالمغفرة ، بالإضافة إلى قلوب محبيه وتلامذته ومريديه ، فى كل مكان ، الذين يدعون له بالرحمة والرضوان .

نسأل الله أن يسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

أمام الدعاة ومجدد هذا القرن

د. أحمد عمر هاشم ـ رئيس جامعة الأزهر

من عدول أمتنا الإسلامية ، فى هذا القرن ، إمام الدعاة ، المجدد المجتهد المفسر الحافظ الحجة الإمام الشعراوى . .

إنه واحد من الذين لهم قدم صدق عند ربهم ، أحب القرآن ، فأفضى إليه بأسراره ، وأحب سيد ولد عدنان ، فأفاض عليه من أنواره ، ومن هنا برزت شخصية إمامنا الجليل فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى متميزة فى تفسيره، مؤثرة فى الوجدان المسلم ، إنه صاحب فكر معطاء ، له من الخصائص العلمية والروحية ما لم يتوافر لسواه ، فإن عطاء الله تعالى له فى هذا الجانب عطاء يجل عن النظير ، ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ البقرة: ٢٦٩ . وجميع الناس ، وكل العلماء ، وطلاب العلم والمعرفة يقرءون ويسمعون ويتحدثون ومن الممكن أن يتساوى البعض فى مقدار القراءة والاطلاع والسماع والحديث، أما مقدار العطاء الإلهى من العلم للإنسان فهذا ما لا يتساوى الناس فيه، ففى الحديث يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله عز وجل يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يغيرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » رواه البخارى .

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يوضح أنه قاسم يقسم بيننا ما أوحى

إليه مما أمر بتبليغه إلينا ولا يخص به بعض أمته دون البعض « والله يعطى » أى يعطى الله الفهم للناس ، ويحظى كل إنسان على قدر ما تعلقت إرادة الله تعالى فيتفاوتون فى الفهم .

وهذا هو التميز الذى تميز به الإمام الشعراوى إلى جانب العلم الموجود فى الكتب الذى يتساوى فيه كل الناس ، أما العطاء الإلهى فى الفهم والاستنباط فإنه يأتى نتيجة الصلة الوثيقة بالله تعالى . وهو ما أطلق عليه علماء التفسير وعلوم القرآن اسم « علم الموهبة » وهو ما يهبه الله لعباده المتقين ، ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ البقرة : ٢٨٢ .

ولأن من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، فإذا ما انضم إلى هذا ما منح الله به الإمام الشعراوى من حافظة قوية ، وعلم غزير ، وذكاء متوقد ، وعلم بتفسير القرآن وأسباب النزول ، ويعلم الحديث وأسباب الورود ، والأدب والشعر واللغات والعلوم الأخرى ، رأينا إلى أى مدى تبلغ قدراته العلمية والتحليلية التى يتجلى بها فى تفسيره وتحليله وتطوافه بمستمعيه أو القارئين له .

والإمام الشعراوى يحمل كل خصائص الإمامة بلا منازع ، يجذبك مجلسه كما يجذبك حديثه ، ويؤثر فيك صمته ووقاره وإن لم يتحدث ، فجليسه يتمنى ألا يفارقه ، وأنا أحد الذين يستشعرون هذا ويقرءون فى وجهه الوقار والنور والنضرة التى دعا بها رسول الله ﷺ حين قال : « نضراً الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع » رواه أبو داود والترمذى . وقد علق على هذا الدعاء النبوى الوارد فى الحديث سيدنا سفيان بن عيينة فقال ـ رضى الله عنه ـ : « ليس من أهل الحديث أحد إلا وفى وجهه نضرة لهذا الحديث » .

من أجل هذا كانت سيرته الذاتية جديرة بأن تسجل ، وكانت مذكرات حياته ، وماضى ذكرياته ، يجب ألا تهمل فى دوامة الحياة العلمية الممتلئة ، بل إن من الواجب أن تسجل ، وأن يتعرف عليها الأجيال القادمة ، فسيقول أبناؤنا وأحفادنا ـ مستقبلاً ـ إننا عاصرنا الإمام الشعراوى ورأيناه ، فهو أحد الأئمة القلائل الذين يظهرون فى الحياة على فترات متباعدة . والناظر إلى هذا التفوق العلمى والروحى ، يرى أنه منذ فترة الشباب والنزعة الدينية والروحية تتبدى فى كل خطاه ، حتى بلغت به شجاعته الأدبية ، وغيرته الدينية وهو فى مقتبل الشباب أيام كان طالبًا صغيراً ، أنه قرأ قصيدة نشرت لأحمد شوقى أمير الشعراء ـ رحمه الله ـ يقول فيها :

رمضان ولى هاتها يا ساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق

فدفعته غيرته أن يذهب إليه ، وأن يقول له : إن لنا عتابًا عليك ؛ فسأله أحمد شوقى : فيم العتاب ؟

قال له ما هى حكاية : رمضان ولى هاتها يا ساقى . . ؟

فضحك كثيراً وقال : ألستم حافظين للقرآن الكريم ؟!

فقال بالطبع نحفظه ، فقال : ألا تعرفون الآية التى تقول : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم ترأنهم فى كل واد يهيمون* وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ الشعراء : ٢٢٤ ـ ٢٢٦ .

قال الشيخ : « وكان ردّ أفحمنا . وبعدها بستة أشهر مات رحمه الله » .

وشاء الله تعالى لإمام الدعاة أن يعيش عمراً بدأه بمرحلة شباب مصون ، فقد تزوج مبكرًا منذ المرحلة التعليمية الابتدائية ، وهى المرحلة نفسها التى تزوج فيها حبيبه وصديقه العارف بالله الإمام عبد الحليم محمود شيخ

الأزهر الأسبق ـ رحمه الله ـ والذى ترتبط جوانب كثيرة من حياته بحياة الإمام الشعراوى .

والزواج المبكر للشباب حين يكون موسرًا وقادرًا على الزواج نعمة كبرى ، وحفظ لحياة الشاب ، وسلوك لطريق الاستقامة وتحمل المسئولية والرجولة الناضجة والمثمرة .

ومذكرات شيخنا العارف بالله الإمام الشعراوى ، حين بدأ يحمل معانى التراث والأصالة والمجد العلمى ، تومىء مذكراته باتجاهه الروحى المبكر واستقامته الجادة فى تعرفه واتصاله بثلاثة من كبار الأولياء الصالحين بالشرقية ، فقد حدثنى أكثر من مرة بأن أعظم ما يعتز به فى أيام طلب العلم بالزقازيق ما كان يحمله فى قلبه وعواطفه من حب وصلة إلى كل من هؤلاء الأولياء العارفين بالله بالشرقية : العارف بالله الشيخ أبو هاشم ، والعارف بالله الشيخ أبو مسلم ، والعارف بالله الشيخ أبو خليل رضى الله عنهم وعن جميع الأولياء وعباد الله الصالحين . وإذا كنا نعتز بالإسلام الذى أنجب إمام الدعاة وغيره من الأئمة الهداة ، فإننا نعتز بالأزهر الشريف الذى صان علوم الإسلام وحماها ، ودافع عنها ونشرها ، والذى فيه تعلم الإمام ومنه تخرج ، وبين أروقته نشأ ، وعلى أيدى علمائه أخذ طريقه فى الاجتهاد والتجديد ، حتى أصبح أحد الأئمة المجددين الذين يمثلون ما يعنيه الحديث الشريف الذى يقول فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » رواه أبو داود والحاكم والبيهقى فى المعرفة ، وقد علق الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ على هذا الحديث بقوله : «والظاهر أنه يعم جملة من العلماء من كل طائفة وكل صنف من مفسر ومحدث وفقيه ونحوى ولغوى وغيرهم » .

فهو أحد المجددين وعدول الإسلام المتقين ، الذين ينفون عنه تحريف الغالية وانتحال المبطلية ، وتأويل الجاهلية . .

لقد عاصر إمامنا الجليل حقبة تاريخية ، تموج بأحداث سياسية منذ كان طالباً وزعيماً للطلاب ، و لكن الإرادة الإلهية صانته حتى أكمل مشوار حياة الطلب ، وكان من الممكن أن يتوقف عند مرحلة من مراحل الطريق ، أو تبهره الأضواء الحضارية . ولكن العناية كانت تدخره مجدِّداً لهذا العصر ، ناشراً الثقافة القرآنية المجيدة ، باعثاً صحوة إسلامية راشدة ، تبنى ولا تهدم ، وتوحد ولا تفرق ، وتهدى الضال ، وترشد الحائر . .

إنه بحق من أعلام الأزهر الشريف قلعة الإسلام ومنارة الهدى ، وكعبة العلم ، حَبَا الله به أرض الكنانة ، كما حَبَا الله بالبيت الحرام مكة المكرمة ، ورحم الله شوقى إذ يقول :

إن الذى جعل العتيق مثابة   جعل الكنانى المبارك كوثرا

وإذا كانت حياة الإمام الجليل ـ كأية شخصية عامة ـ مقروءة معروفة للناس ، فإن فى حياته صفحات أخرى لا يعرفها إلا الواحد بعد الواحد . . منها البذل والسخاء ، والجود والإنفاق على الفقراء ، والتبرع لمشروعات الخير وأعمال البر وصنائع المعروف ، فكم من معاهد دينية أقامها ، وكم من مؤسسات بر أنشأها ، وكم من صنائع خير قدمها . لقد رأيته ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر ، وتدفعه نزعته الروحية ، وعاطفته الصوفية أن يدع أجواء الاستجمام ومناخ الراحة ، وأحسن المواقع للإقامة ويؤثر الإقامة على مقربة من مسجد السيدة نفيسة ـ رضى الله عنها ـ ، فتعلقه بآل بيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدفعه إلى هناك ليقيم « مبرة » يبذل فيها ـ عن سخاء ـ كل ما يستطيع ليكرم وفادة الغرباء ، ويغدق على الفقراء . وشيخنا المفضال يتمتع بأخلاق فريدة ،

وسجايا حميدة تذكر حين نلقاه ، بصحابة رسول الله ـ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ـ فهو جم متواضع جياش العاطفة ، متهلل المحيا ، موصول ـ دائماً ـ بالله ، وإنى لأضرع إلى الله تعالى أن يسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

إهداء

من عبد مؤمن فى «دار الفناء». . إلى عالم جليل فى «دار البقاء». . أهدى سطورا من نور. . لست أنا كاتبها. . لكننى متلقيها. . رواها لى إمام الدعاة فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى على فترات. . تقاربت أحيانا وهو - رحمه الله - يقاوم المرض فى صبر واستبشار . . وتباعدت أحيانا حين كان يشتد عليه المرض فيركن وقتا إلى الراحة والهدوء. . ولكن دون أن يشكو أبدا. . فقد كان رضاؤه كاملا بما قدره الله له. . وكان إيمانه عميقا بأن الله دائما معه وإلى جواره. . وكان يردد عبارته الشهيرة لكل من يلقاه أو يجالسه وهم كثيرون: كيف أشكو لمخلوق وأنا فى معية الخالق. .

هذه حكاياته مع الزمان. . وحكايات الزمان معه. . كما أحب أن يصف مذكراته. . أهديها إلى صاحبها فى «رقدة الخلود». . تسجيلا لمسيرة نبع «الخواطر الإيمانية». . الذى سكن سويداء القلوب. . وأثرى فكر ملايين المؤمنين. . بما روى به من علمه النافع. . تعطش البشر إلى مزيد من إنارة القلوب والنفوس. . بما يعينهم على مواجهة ماديات هذا الزمان.

محمد زايد

الدنيا يجب أن تكون فى أحضان الدين
والدين يجب أن يكون أستاذ الدنيا

قال الداعية الإسلامى الكبير ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، فى مقدمة ما خص به « الأهرام » من رواية تفصيلية مسلسلة لتاريخ وتجارب حياته . . منذ كان تلميذاً فى كُتَّاب قريته « دقادوس » . . إلى أن أصبح يسكن الآن قلب وعقل كل مؤمن فى الأمة الإسلامية . قال العالم الكبير بأدبه الجم :

«مجرد طلب مذكرات حياتى شهادة لى بأن حياتى أصبحت موضوع دراسة . . ».

ولهذا أظن أنه بإجابة هذا الطلب ، لعل حضرات القراء يصلون أعمارهم بأعمار المجربين قبلهم . . وبذلك يثمرون حياتهم فى أقصر وقت ممكن . . ولعل ما يوفرونه فى استثمار تجارب الآخرين من الوقت ، يمثل ما يفيض الله به عليهم . من تجارب لسواهم . .

أسأل الله أن يجعل هذا الباب مقدمة أبواب أخرى لتجارب غيرى . . والله الموفق أولاً والموفق أخيراً . .

ويزيد هذه التجارب شرفاً وعمقاً ، أنها فى حضانة منهج سماوى من خالق هذا الإنسان ، وهو أعلم بقانون حياته ، وأعلم بتقصير المسافة لمهمته . . حتى

لا تتـأرجح الأنظار بين آراء بشـر لا يحكـمـهم إلا هوى . . يختلف مع أهواء الآخرين . . والحياة لا تستقيم إلا بالاتحاد مع هوى . . ولذلك يجب أن يكون هوى البشر فيما خصه الله بالبشر .

ويجب أن يلاحظ أنه مع الله لا يوجد دين ودنيا . . فالدنيا يجب أن تكون فى أحضان الدين . . والدين يجب أن يكون أستاذ الدنيا . . ولأن الأصل فى الدين ألا يتفق مع سياسة بشر . . وإلا كان البشر مستدركاً على من خلق البشر . . فلهذا لن تتناول مذكراتى ما تختلف فيه السياسات على اختلاف الأهواء ، لأن هوانا كما قال الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » .

« وأبدأ اليوم حكاياتى مع الزمان . . أو حكايات الزمان معى » .

هــذا ابنــى
اكسر له ضلعاً .. وأنا أعالجه

وبدأت فى ظل أحداث ثورة ١٩ رحلة التعليم الدينى للشعراوى الابن . . فى كتّاب « سيدنا الشيخ عبد الرحمن » . . استجابة لرغبة أبيه . وربما من أعز وأغلى المعانى التى يحتفظ بها من ذكريات هذه المرحلة الأولى فى كتّاب القرية . . قوله فى إجلال واحترام :

« إن الفقهاء الذين كانوا يقومون على تحفيظ القرآن . . كانوا يسمونهم وقتها سيدنا . . ولك أن تقدر مدى مكانة واحترام الذين يطلق عليهم الناس هذا اللقب . . حتى العمدة كان يقول : سيدنا فين . . وابحثوا عن سيدنا . . وكان هذا يدل على طبيعة البلاد ووجدانها الدينى . . كانت الناس تحب كل من يسمى سيدنا . . وسيدنا ذهب وسيدنا جاء . . وهذا اللقب موجود فى كل الأرياف . . وله احترامه الكبير » .

ومن عند ليلة الذهاب لأول مقابلة مع سيدنا . . يستأنف فضيلة الشيخ الشعراوى مذكراته قائلاً :

« قبل أن يأخذنى أبى إلى كتّاب سيدنا ، وأنا صغير . . أعدّنى لهذا اللقاء . . اشترى لى كمية هدوم كويسة . . وأنا أتساءل ليلة ذهابى للكتّاب بينى وبين

نفسى : يارب . . ماذا يريد أن يفعل بى أبى ؟!».

وفى الصباح ، صلينا الفجر وتناولنا الفطور . . وأخذنى أبى من يدى ، وذهب إلى كتّاب سيدنا الشيخ عبد الرحمن . . وسلمنى والدى إليه . . وهو يقول له :

«هذا ابنى ، اكسر له « ضلع » . . وأنا أعالجه !».

ثم أشبعه توصيات من هذا النوع . .

وسأله سيدنا : ابنك اسمه إيه ؟

فرد والدى :

- اسمه الرسمى محمد . . لكن سِتُّه لأمه أسمته أمينًا . . وهى تحفظ القرآن الكريم . . فيصبح له اسمان .

فقمت أنا من مكانى ، وقلت لهما :

لا . . هناك اسم ثالث .

فرد الشيخ عبد الرحمن :

ما هو الاسم الثالث يا بنى ؟

فقاطعته قائلا :

قل لى ياوله . . مش يا بنى .

فسألنى : لماذا ؟

فقلت لسيدنا : لأن ابن عمتى ينادينى دائما ياوله . . ما يقوليش لا يا محمد ولا يا أمين . . يقول لى يا وله .

ضحك سيدنا الشيخ ، وقال :

ياوله دى يعنى ياولد . . وهذه تقال لكل واحد فى سنك .

فقلت لسيدنا :

أهم بيقولوا لى كده . . واحد يقول يا محمد . . وواحد يقول يا أمين . . وواحد يقول ياوله . . لخبطونى . . فتعودت على وله .

وتوجه سيدنا بالحديث إلى أبى سأله :

يا أبا عبد الحافظ . أنت مش عايز تعلم ابنك!

وهنا - فيما يضيف الشيخ الشعراوى كانت أول وقفة عقلية لى . . فعبد الحافظ هو جدى . . فكيف ينادى سيدنا الشيخ ابنه الذى هو والدى . . بـ يا أبا عبد الحافظ . . وهذا ما واجهت به أبى بعد انصرافنا من الكتّاب . . قلت لأبى :

ألست أنت ابن عبد الحافظ ؟

فرد والدى : نعم . .

وقلت له : إذن . . كيف يناديك سيدنا يا أبا عبد الحافظ ؟

وبدأ والدى يجيب عن السؤال ، قدر استطاعته . . فقال لى مثلا :

لما يكون واحد لسه ما خلفش . . وله أب . . يقولوا له يا أبا فلان على اسم والده . . تفاؤلا .

وذهب والدى إلى الشيخ عطا ، جد الشيخ سيد سعود وكيل مشيخة الأزهر الآن ، وقال له :

- الولد سألنى سؤالاً عن كذا وكذا ماهو الجواب يا سيدنا ؟

فأجاب الشيخ عطا :

ـ والله أنا اللى أفهمه أن كلمة يا أبا فلان نشأت من أيام سيدنا علىّ ، لأنه كان له الحسن والحسين . . فكانوا يسمون الحسن أبا على . .

وعندما عدنا إلى منزلنا ، قال لى والدى : «إن هذه المسألة لم تدخل عقله . . فظلت هذه المسألة تصاحبنى ، وتقلق ذهنى من سن سبع سنوات . . حتى بلغت الكفاءة »؛ فقلت لنفسى : «لعلهم يقصدون شيئا» ، يعنى أن الأب عندما يصبح مسناً . . ابنه الذى يحمله وهو الذى يتولى أمره . . مثل عمى الشيخ أحمد الشناوى . . كنا نرى ابنه الكبير عبد البارى يحمله . . ويقول له أنا عايز أروح النهارده المسجد . . لأصلى الجمعة . . فيحمله على كتفه ويذهب به إلى المسجد . . فقلت لنفسى : لعلهم يتفاءلون بمناداة يا أبا عبد الحافظ لأن الإنسان عندما يكبر مثلما قال تعالى : ﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ﴾ (الروم : ٥٤) ، يصبح فى حاجة ليس لابن ولكن لأب . . وهذه المسألة أوجدت عندى عملية فكرية إلى أن انتهيت فيها إلى رأيى ، وقلت تعبيراً عنه كلمة مشهورة فى التوجيهية وهى :

« الزواج المبكر أقصر طريق ليس لإنجاب ابن ، ولكن لإنجاب أب . . يعولك فى طفولة الشيخوخة » .

وتربى عندى الاعتقاد من يومها . . بأنك عندما تقول يا أبا فلان . . يطول عمره إلى أن يصبح غير قادر . . ويكون له ابن هو الذى يشيله ويحطه . . ويصبح ابنه هو والده فى طفولة الشيخوخة . . وهذا الاعتقاد كان شأنى فى كل شىء . . فعندما رأيت شيخاً جليلاً يضرب به المثل لمعاصرته أربعة أجيال ، وكنت قد أصبحت عالماً بالأزهر . . يدخل علينا ويقول : اضحكوا . . فقال له خالى الشيخ أحمد ـ رحمهم الله جميعا ـ : « نضحك على إيه يا حاج حامد ؟»

فرد قائلا : بنت ابن ابن ابنى ولدت الليلة . . فرد عليه خالى : يا سلام بقيت للرابع ياحاج حامد . . ولأن خالى كان يعرف أننى أقرض الشعر . . فقال لى : والله المسألة دى عايزة ينقال فيها شعر . . فطلبت أن يتركونى بعض الوقت ، ثم قلت :

حبانى خالقى عمرا مديدا

وسيرنى بأنسالى سعيدا

وأمتعنى بعافية وعز

فلست أريد بعدهما مزيدا

وماذا بعد أن أضحى حفيدى

وقد وهب الإله له حفيدا

كل هذه الأفكار التى تداعت جاءت من واقعة مناداة أبى بمناداة يا أبا عبد الحافظ . . وتعجبى من أن يكون الابن هو الأب . . وهذا يدل على أن الأفكار التى تمر بالحياة ، لو أن الإنسان استثمرها وعايشها فإنها تنمو مع غده . . وتبرز منها معان طيبة .

فى مواجهة الهجانة

بعد أن واجه فى كتاب سيدنا أول مسألة عقلية ، وتبين أبعادها فى التوجيهية . . يواصل الداعية الإسلامى الكبير الشيخ محمد متولى الشعراوى روايته عما يعيه من أحداث الطفولة . . يقول :

لما ذهبنا إلى الكتّاب . . كانوا يطلبون منا الكتابة على اللوح . . نقرأ من المصحف ونكتب فى اللوح . . وأول ما نكتبه بالطبع « بسم الله الرحمن الرحيم » ووجدت أنا وابن خال لى واثنان من زملائى أن كتابتها فى اللوح الصغير تأخذ سطرا بأكمله . . فقال أحدهم : لو الواحد كتبها على السبورة حتبقى أد إيه ؟! لابد أن نكبر الكتابة إلى أن تملأ عرض السبورة كلها . . وتعلمنا من هذا أن الكتابة تكبر وتصغر بحجم الحيز المطلوب . . وأخذنا نحرك فى عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » على السبورة يمينا ويسارا حتى جاءت فى منتصف السبورة . . وهذا ما نراه الآن فى كتابة عناوين الصحف ، أسفل بعضها البعض ، بنفس الاتساع . . ولكن مع اختلاف حجم الكلمات . . ومن حروف « بسم الله الرحمن الرحيم » علمنا زميلنا محمد محمود إبراهيم ـ وكان بالغ الذكاء ، ماشاء الله ـ كل حروف الهجاء من ناحية الشكل ، وأيضا من ناحية النطق . . فمثلا : الباء لو كان تحتها نقطتان تكون ياء ، ولو وضعنا نقطة فوقها بدلا من تحتها تكون نونا ، ولو وضعنا نقطتين

تكون تاء ، ولو ثلاث نقط تكون ثاء . . وهكذا جرى الحال مع بقية أحرف «بسم الله الرحمن الرحيم » .

ومن هنا ، أدركنا أن الإنسان إذا عاش مع فكرة أعجبته . . يستطيع أن ينميها ويطور فيها تطويراً يقلل مسافة الاستذكار ، ويقرب الفائدة . . وأصبحنا ننقل هذه المسألة إلى الزملاء فى كتاب سيدنا الشيخ عبد الرحمن .

وهنا أتذكر أيضا ، أننا كنا نحفظ القرآن من آخره . . أى من السور القصار فى خاتمته . . لكى يقول الولد منا إنه يحفظ سورة كاملة . . وليس آية فقط من سورة البقر مثلا . . وعندما جئنا إلى سورة ﴿ ألم نشرح لك صدرك ..﴾ (الشرح : ١) ، كنا ننطق بدايتها ، وهى (الم) ، متصلة . . ولكن عندما بلغنا سورة البقرة ، قال لنا الفقى إن بدايتها وهى حروف (ا . ل . م) لاتنطق متصلة مثل (ألم) ، ولكن ينطق كل حرف على حدة منفصلاً . . فدهشنا من هذه التفرقة فى النطق ، وسألناه : لماذا ؟ فقال : إنها سمعت هكذا . . إذن ، القرآن لايقرأ ككتاب عادى . . ولكن لابد أن يسمع أوّلاً ، وإلا فما الفرق بين ا . ل . م ، وألم فى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك﴾ ؟ وهذا يفسر لنا قوله تعالى : ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ (القيامة : ١٨) ، كما سمعت . . وإياك أن تحفظ القرآن وحدك . . لابد أن تسمعه أولا ثم تحفظه . .

ولو كنت اتبعت هذا النصح فى صغرى ، لما ضربنى سيدنا الشيخ عبد الرحمن طويلا ، وأنا لا أعرف السبب . . إلى أن قال لى ، إننى أنطق قبل أن أصحح النطق مع الشيخ حسن ، الذى كان علينا أن نصحح معه النطق أولا . . سألته : كيف ؟ . . قال لى : إننى هربت مع زملائى من الشيخ حسن ، لهذا قرأت ﴿ حم * عسق ﴾ فى بداية سورة الشورى هكذا : ح . م منفصلة ، ثم قرأت عسق . . أى العين والسين والقاف متصلة على طريقة (ألم) وأكدت

لى هذه العلقة فى سن مبكرة أنه لابد أن نسمع القرآن بالنطق الصحيح قبل أن نقرأه أو نحفظه .

ولما ارتقت الدنيا ، وابتكروا المسجلات . . وكان هذا بعد أن أصبحنا علماء . . قالوا إنه يمكن للإنسان أن يسمع القرآن على مسجل ثم يحفظه . . ولكن المسجل ، إذا سمعته وبدأت الحفظ ، ربما تخطئ فى النطق ولا يرد لك الخطأ ، وإنما الفقى يظل يردك حتى تنطق النطق الصحيح . . ويعنى هذا أنه لابد من ملقن .

ووقت أن تلقينا هذه الدروس فى الطفولة ، كانت أحداث ثورة ١٩ تمر أمام عيوننا . . أناس من مختلف الطبقات والطوائف . . كبير وصغير . . فقير وغنى . . متعلم وجاهل . . كلهم تأخذهم عملية وطنية واحدة . . كلهم مرتبطون مع بعضهم البعض ويعملون العمايل اللى هيه . . أنا رأيتهم بعينى وهم يحملون عربات الدلتا . . وكانت بين بنها والمنصورة ، وتمر على الرياح التوفيقى . . ويلقون بها فى الترع . . ويقومون بفك القضبان جميعهم مع بعض ، وكأنهم شخص واحد . . ويأتى الإنجليز من معسكر لهم فى بلدنا ، ويرون ما جرى . . ولا يجدون فردا واحدا يعترف على آخر . . كانت حمى وطنية تجتاح الجميع . . وقد غذوا الأطفال فى القرية التى نشأت فيها بهذه الوطنية . . إلى أن تبين أثرها سنة ١٩٣٠م . . وقت أن حكم إسماعيل صدقى البلد وألغى دستور سنة ١٩٢٣ ، وعمل دستور سنة ١٩٣٠ ، وزيف الانتخابات . . وقريتنا دقادوس وجدت تعبيرا عن وطنيتها أنه لابد أن تقاطع الانتخابات . . وفعلا قاطعت الانتخابات . . نادى المنادى قبلها بيوم : يا فلاحين ، هاتوا أكل مواشيكم لأننا مش هنخرج بكرة من الدور . . وانتوا يا عمال يا اللى فى ميت غمر ، وضبوا أرزاقكم . . هاتوا عيش من الطابونة . .

وكذا وكذا . . وأصبح يوم إضراب . . والدور كلها مسككة . . واللجنتان معقودتان بالبلد . . ولكن ولا واحد يدخلهما . . حتى نحن الصغار منعونا من الخروج .

وعندما بلغ الخبر المديرية . . أرسلت لنا كتيبة لتخرج الأهالى من بيوتها . . جاء الصاغ عبد المجيد شريف ـ وكان وكيل الحكمدار ـ على رأس القوة ، ودخل القرية ، وتوجه إلى بيت من البيوت ، وكسر الباب ، وأخرج الناس الذين بداخله . . وكان بداخله سيدنا الشيخ عبد الرحمن الشهابى رحمه الله . . وعندما قاوم الجنود ، ضربوه بالنار ، فمات فى الحال . . وقامت المعركة . . والبلد رمت الكتيبة فى البركة . . والصاغ إياه انقتل . . ولم تتم الانتخابات . . وعندما ألقى صدقى بيانه فى المجلس ، قال : لقد حصلنا على كذا صوت فى الانتخابات . . إلا فى قرية دقادوس التى امتنعت عن الانتخابات . . ومن يومها ، أنشأ صدقى شيئا اسمه هجانة . . يأتون إلى القرية بعد صلاة العصر . . ولا يخرجون منها إلا مع طلوع الشمس فى اليوم التالى . . وظل البلد على هذه الحال طوال مدة حكمه لأربع سنوات . . فكنا نحتال على هذا الأمر بافتعال مياتم وما إلى ذلك . . ومن هنا تضاعفت الحمى الوطنية فى البلد .

دروس من أيام « الفلكة » !

ورغم أنه نسى أحداثا كثيرة من أيام الطفولة . . إلا أن هناك أيضا ـ كما يقول فضيلة الشيخ الشعراوى ـ أشياء كثيرة لا تنسى . . غرس كتّاب « سيدنا الشيخ عبد الرحمن » بذورها . . التى أنبتت خواطر . . وكلما كبر الداعية الإسلامى الكبير ، تكبر معه الخواطر . . إلى أن يستنبط منها القضايا . . ومن أبرز الأمثلة التى يعتز بها كل الاعتزاز ، تلك الخواطر التى أبرزت له السمات المنفردة التى يتميز بها كتاب الله . . والتى يعددها هنا قائلاً :

السمة الأولى التى يتميز بها القرآن أنه لا يقبل عليه إلا المتوضىء . . فليس القرآن كأى كتاب آخر .

والثانية : أنه يقرؤه بشكل خاص .

والثالثة : أنه يكتب أيضا كتابة خاصة . . ففيه ألفاظ مكتوبة كتابة على غير القاعدة . . فعبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » مثلا ، ليس فى كلمة « بسم» ألف قبل السين . . ولكن ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ (العلق : ١) ، تجد فيها ألفاً قبل السين . . وأما باقى الأسماء كلها فبدون ألف . . إذن ، القرآن له قراءة خاصة لا يقرأ بغيرها . . ومعنى هذا أنك تقرؤه كما تسمعه ، وتكتبه كتابة خاصة أيضا كما ورد لك فى المصحف .

والسمة الرابعة : أنه كلام الله المعجز . . وكماله لا يتعدى إلى غيره إلا حكماً . . وإنما أسلوباً لا . . فأنت إذا قرأت أى كتاب فى الأدب مثل العبرات للمنفلوطى . . أو ما شابه ذلك ، قد يحسن أسلوبك أو لا يحسنه . . ولكن هات الفقى الذى يحفظ القرآن منذ الرابعة عشرة ، وقل له اكتب خطاباً؛ تجده لا يعرف . . إذن كمال القرآن البلاغى لا يتعدى إلى غيره أبداً . . يظل هو هو . . بينما أنا لو قرأت كتابين فى الأدب يتحسن أسلوبى .

إذن القرآن متميز تناولا بطهر ، وقراءة بسماع ، وكتابة بالموجود ، وكمالا لا يتعدى . . وقد صحبتنا هذه الفكرة إلى أن أصبحنا علماء كبارا ، وبدأنا نعد منها قواعد ، ونعمل منها أشياء .

وهنا أتذكر عندما ذهب بى أبى إلى كُتّاب سيدنا أول مرة ، وقال له اكسر له ضلعا وأنا أعالجه ، أخذت من هذا قاعدة . . لقد كان سيدنا قاسياً علىّ دون غيرى . . وكنت أجدها قسوة غير منطقية . . لأنه كان هناك أناس غيرى على قدر حالهم . . يأتون لسيدنا بالخبز على الأكثر كل يوم خميس . . وأما نحن، فكنا نحمل إلى سيدنا من كل ما يدخل بيتنا . . فقلت لنفسى : بقى الذى يكرمه يكسر له ضلعا ، ويسبنى ويلعن أبويا . . ويقول لى تعال يا ابن (. . .) حتى اشتكيت إلى أمى . . فقالت لأبى : قل للشيخ يخف على الواد شوية .

فسألها : سيدنا بيعمل إيه ؟ فقالت له : بيعمل كذا وكذا وكذا . . فرد أبويا عليها : يبقى عمل بالوصية . . إذن أبويا عندما قال لسيدنا « أنا بأوصيك عليه» . . كانت كلمة « عليه » هذه تعنى الشدة . . بما يدل على أن المربى حين يكون فاضلا يقسو على من يحب . . إذن هناك فرق بين أوصيك بكذا ، وبين أوصيك على فلان . . ومعناها إياك أن تأخذك به الرأفة حين ينحرف . .

وتقول هذا ابن حبيبى . . ولا ابن مش عارف إيه . . ولما يكون خيره أكثر . . لازم تكون الشدة أكثر .

وبقيت هذه المسألة فى نفسى ، إلى أن كنا فى الكلية ، وقال لنا الشيخ يوسف نجاتى بلغة الشعر : « فقسى ليزدجروا » . . فرويت له حكايتى السابقة فى كتاب سيدنا . . ولذلك فتربية المحب للمحب فيها قسوة . . ومن هنا ، كان سيدنا الشيخ عبد الرحمن عندما يحدث أى شىء من غيرى كان يمكن أن يغفره له ، ولكن لا يغفره لى . .

وعندما كبرت ، وأخذت الشهادة الابتدائية . . وجدت سيدنا الشيخ جالساً فى المسجد يسمعنى . . وأنا أعظ . . وسألنى : « القلم اللى خدته على صدغك عمل إيه » ؟ فقلت له : جزاك الله كل خير .

وتذكرت كلمة الفلاحين وقتها : بارك الله فيمن بكانى وبكى علىّ ، ولا بارك الله فيمن أضحكنى وأضحك الناس علىّ . . وأخذناها قاعدة من هنا . . من أيام الطفولة .

وكان سيدنا الشيخ عبد الرحمن حازما ، وشكله له هيبة . . وكان يعجبه كثيرا أن يقول له العمدة تعالى يا سيدنا . ويسأله : أنا سيدك ؟! فيرد العمدة أنت سيدى وسيد أبويا كمان . ولم تأخذه العزة ، وهو عمدة البلد . . يقول أيضا لسيدنا : يا سيدنا . . مما يدل على أن القيم الدينية هى الأصل . . وهى فوق كل شىء . . حتى ولو كان الإنسان عاصيا ، أيضا يحترم مولانا وسيدنا .

ولذلك ، عندما كنت أحاضر فى الجامعة أيام صوفى أبو طالب ، كنت أقول : القيم هى القيم ، ولا تقل إنها أمر إضافى . . فالكذاب يحترم الصادق وإن كان لا يحبه . . بحيث لو جاءه فى شهادة يكون على العين والرأس . .

وإنما إذا جاءه كذاب مثله ، يبعده ولا يعتد بشهادته . . إذن هى القيم . . وضربت مثلا بأعنف غريزة تمر بالإنسان ، وهى الغريزة الجنسية ، فقلت : لو كان هناك ثلاثة أصحاب ، وجاء دور المراهقة واثنان منهم يعيش كل منهما على « حل شعره » ، والثالث انقطع عنهما لأن بيئته أو نفسه لا تسمح له بأفعالهما ، وبالطبع قاطعاه وأسمياه جردل أو قفل . . وجاء أحدهما ليخطب فتاة عند الثانى هل يزوجها له أم لا ؟! بالطبع لا . . ولكن لو جاء الثالث ، الذى لم يشترك معهما فى الحياة على حل شعرهما ، وطلب يد الفتاة . . هل يوافق ، أم لا ؟! طبعا يوافق ، وهو سعيد جدا .

إذن القيم هى القيم . . وحين يتعرض لها الإنسان يحكم بالحق . . وعندما لا يتعرض لها ، لا يهمه شيء .

أذكر أيضا أن سيدنا كان عنده فلكة يضعها فى الفصل علنا . أى أن آلة العقاب ظاهرة ، ونحن نحفظ القرآن نرقبها . . وأخذت من هذا قاعدة ، وهى أن الإنسان لا يذهب إلى الشر إلا لأنه نسى العقوبة عليه . . أى أن الذى يذهب للسرقة ، لو تذكر أنه سوف يقبض عليه ويسجن ، لما ذهب للسرقة . . لكنه نسى تماما هذه العقوبة . . وكذلك العمل الصالح ، لا يزهد فيه الإنسان إلا إذا كان لم يستحضر الجنة . . ولو استحضر الجزاء فسوف يتأمل ويستنكر دروسه .

إذن ، التدين كله أن تستحضر مع الطاعة الثواب عليها ، وأن تستحضر مع المعصية العقاب عليها .

أخذنا هذه قاعدة من فلكة سيدنا عبد الرحمن ، وهى موضوعة أمامنا . . لدرجة أن إنسانا عريض المنكبين ، وكان يعمل وكيلا للشيخ قال لسيدنا : لماذا تحضر هذه الفلكة؟ الأولاد يخافون منها . . فقال له : أنا أريدهم أن يخافوا . .

وعندما يخافون لا يهملون . إذن هذه ملاحظة تمثل قضية من قضايا الدين. وأنا ضُربت كثيرا من فلكة سيدنا . . فمثلاً أيام حكاية عسق ، التى سبق أن رويتها ، ضُربت ما يقرب من عشرين ضربة . . وبعدها أدبتنى وعرفت أنه لا يصح أن نقرأ القرآن إلا إذا سمعناه أولا .

وأحداث الطفولة هذه لا يتركها الإنسان . . بل يصطحبها لتنمو مع حياته حتى نضجه ، وتلتفت تجدها تعطيك ثمرة . . وهذه الثمرة يستطيع من لم يدركها إن هو استعملها أن تفيده وتقصر عليه تجارب الحياة . . لأن عمر الإنسان يجب أن يستخدمه فى الأمر النافع . . ولا نجعله حقل تجارب . . وكان فيما مضى عندما يكون تلميذ نابغة أو له عمل سياسى أو قائد مظاهرات . . يعينونه وزيراً ولا يأتون بغيره ممن لا تجارب سياسية لهم . . لكيلا يجرب فى الأمة .

حكايتى مع الشيـطان

ويستأنف الداعية الإسلامى الكبير فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى مذكراته . . بادئا بواقعة شهدها فى صغره ولا ينساها . . لأنها أطلعته على حقيقة دور الشيطان في الحياة . . والذى يسعى بينهم بسمومه دون غيرهم من خلق الله . . وهم ـ فى تعريف الشيخ الشعراوى ـ الصالحون الذين لا يكف الشيطان عن المحاولة معهم . . بينما لا يقرب من الفاسدين ، لأنه يكون قد اطمأن عليهم ، ولم تعد بهم حاجة إليه .

يقول الإمام الكبير الشعراوى فى روايته لتلك الواقعة :

جاءنا يوما الشيخ عبد العزيز ، وكان رئيسا للوعظ فى ميت غمر . . أطال الله عمره إن كان حيا . . ورحمه الله إن كان توفاه . . ويومها كنا فى مأتم . . وهذه تكون دائما مناسبة للاجتماع وسماع الوعظ . وتقدم منه الشيخ أحمد دحروج . . وكان مشهورا فى القرية بأنه أهل علم وليس بعالم . . وأهل العلم، هم الذين يجمعون كلمة من هنا وكلمة من هناك . ولكن لا يوصف أحدهم بأنه عالم . . تقدم إلى الشيخ عبد العزيز الواعظ وقال له : لدىّ سؤال . . وكان يفعل هذا كثيرا أمام البلد لكى يظهر بأنه يسأل ، وربما يعجز المسئول عن الإجابة . . ولما قال له الشيخ عبد العزيز : تفضل اسأل . . قال الشيخ أحمد دحروج : هل تستطيع أن تفسر لى لماذا يقتل

المسلمون بعضهم ويحرقون زرع بعضهم ، بينما غيرهم متقدمون وليس لديهم مشاكل؟

وكان أن توقف الشيخ عبد العزيز بعض الوقت حائراً أمام السؤال . . ولكن لأن والدى كان يحب العلماء تدخل فى الحديث ، وقال للشيخ دحروج : الكلام ده نتكلم فيه معاً على المصطبة . . لكن الشيخ عبد العزيز ، الذى عمل له والدى تشريفة . قال لوالدى : طيب لو كنتم الآن على المصطبة . . بماذا ترد على السؤال ؟

فقال والدى : سوف أقول له : إن الشيطان اطمأن على الفاسدين ، فهم مأواهم النار . . أما الصالحون فإن الشيطان يظل متنبها إليهم . . محاولا معهم ماداموا لم يخضعوا بعد لسيطرته . . أليس الشيطان هو الذى يقول : ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ (الأعراف ١٦) ، إذن الشيطان لا يأتى إلا للصالح . . أما الفاسق فالشيطان مطمئن عليه .

من هنا يكون المعنى الذى نفيده ، هو أن الإنسان يأخذ الحكمة من أى وعاء ، مادامت حكمة . . ويجب أن يعرف الإنسان أن الفطرة السليمة مشغولة بالحكمة فى ذاتها . . والذى يفسد عليه هذه الحكمة الهوى . . هو الذى يلونها . . بدليل أن الإنسان عندما يقبل على شيء بدون هوى . . يكون الوصول إلى الحق فيه سهلاً . . لأن غرضه هو الوصول إلى الحق . . وليس غرضه المجادلة .

فمثلا ، كان فى البلد رجل طيب ، اسمه عم منصور . . وكان عنده نصف فدان يزرعه قمحاً . . ولما انتهى الدريس ، أراد إخراج الزكاة . . رغم أنه نصف فدان فقط . فأجلس امرأته معه . . يرمى ٩ كيلات من القمح هنا . . وكيلة هنا . . أى ما يوازى العشر . . وامرأته تعطى الغلابة من هذه العشر ،

وتقول لكل من تعطيه : اقرأ الفاتحة . . لأخى . . اقرأ الفاتحة لفلان . . فجلس عم منصور غاضبا من امرأته . وأخذ منها قمح الزكاة . . وبدأ يعطيه للناس قائلا : خذ يا بنى . . ربنا الأعلم . . هذا القمح لمن . . وهكذا يمكن أن نأخذ من الفطرة السليمة ما لا يكفيه كتاب بأكمله .

وأيضا . . أذكر من صور الفطرة السوية التى أدركت معناها منذ الصغر . . أننى بعد أن أصبحت عالما ورأست بعثة الأزهر فى الجزائر . . كنت مسافرا إلى وهران مع محافظها الذى كان يقود سيارته بنفسه . . وقابلنا فى الطريق شيخا يقف حائرا . . فرجع المحافظ إليه بسيارته حيث يقف . . وهممت بفتح باب السيارة الخلفى للشيخ . . لكنه لم يركب . . وأصر على أن يعرف أولا الأجر الذى سوف نأخذه منه قائلا : على كم ؟ ورد محافظ وهران عليه قائلا : لله ياشيخ . . وهنا رد الشيخ : غلتها . . غلتها . . أى أنه مادام قد وقف له ليركبه السيارة كعمل خير لله . . فإن أجره من الله سوف يكون غاليا . . وهنا نلمس بجلاء الفطرة السوية . . وهذه الواقعة فسرت لى آية ﴿ وما أسالكم عليه من أجر إن إجرى إلا على رب العالمين ﴾ (الشعراء : ١٠٩ .

وهكذا كنا كلما مرت بنا أشياء فى طفولتنا . . نقف عندها طويلا . . لنستخرج منها القضايا . . فكانت بلدنا رتنا مثلا بين بحرين . . ونصفها يعمل بالصيد . . وكان عم عبد العزيز خير الله أحد الصيادين . . أسود زبيبة ، دمه شربات . . لاتشبع منه . . وكان يأتى إلينا فى كتّاب سيدنا الشيخ عبد الرحمن رحمهما الله جميعا . . وسأله مرة سيدنا : لماذا أتيت يا عم عبد العزيز ؟ فرد قائلا : أريد أن أسمع ولدا من الحلوين دول . . لأعطيه صيد اليوم . . وكنت أعجب كثيرا ، وهو يستمع للقرآن من ولد بعد الآخر . . إلى أن يستحسن قراءة أحدنا . . فيحمل إليه فى داره ما يصيده فى العصر من أسماك . . ويقول

له : هذا رزقك . . وهكذا نرى كيف كان الصياد الذى لا يحفظ القرآن يشجع الصغير الذى يحفظ القرآن . . وعندما عرف أننى ألقى الشعر فى الحفلات ، طلب منى أن أقول فيه بيتين ، فقلت لعم عبد العزيز الصياد :

خير الله فى سمك لونه لمعة الأبنوس

من حسن تقواه أخذ مركزه فى دقادوس

صياد سمك بالشبكة يرميه يقول يارب

حط السمك فى الشبكة من غير سبب يارب

لا طعم فيه ولا معجون ولا سنارة

إلا ضمانك لأرزاق العباد يارب

وبعد أن فرغت من إلقاء الأبيات . . جاءنى عم متولى الحداد ، وكان اسمه على اسم والدى وكان صديقا حميما له . . وسألنى معاتبا : هل تقول شعرا فى عم خير الله الصياد . . ولا تقول شعرا فى صديق أبيك ؟! وكان له ابن اسمه إبراهيم ، فقلت لصديق والدى الحداد :

يا أبا إبراهيم طرقتك تفرح حزين البال

الريشة فى المطرقة والعود فى السندال

تعمل عجب من عجينة نار

يارب صل على داود وعلى المختار

وعندما سمع المراكبية قولى ، احتجوا قائلين : واشمعنى احنا ؟ فقلت لخالى الشيخ أحمد . . اكتب أنت بيدك . . وقلت :

إحـنــا صــــبـــيــــان نـــوح

نـــروح مـطـــرح مــــــا نــــروح

إن سـكـت الـريـح ولا فــــيـش تيـــــار

بـرضـــــــه مـــــا نـحــــتـــــار

دا إحــنـا جـــــــــدعــــــــان

وربــنــا ادانــا قــــــــــــوة أبـــدان

وبعـد أن كـبـرنـا ودخلنا المدرسـة الابتـدائية . . عـرفنا أبا عـبـد الرحـمن البياضي . . وكان فلاحا ويعلمنا قراءة الشعر والأدب بالفصحي . . وكانت فطرته سليمة . وعندما كان المفتشون يأتون إلى المدرسة . . كانوا يطلبون ابنه مصطفى البياضى ليقرأ لنا شعر شوقى . . وكان أبى يذهب إلى المحطة يوميا وينتظر إلى أن يأتى القطار ويحضر منه الجريدة . . التى كانت كثيرا ما تنشر قصائد لشوقى . . ويطلب منى أن أحفظ كل قصيدة يجدها ، ويغرينى بإعطائى ريالا عن كل قصيدة أحفظها . . ووقتها كان الريال فى العشرينات حاجة كبيرة قوى .

من هذه القصة ، نأخذ عبرة أن الآباء كانوا زمان يشجعون أبناءهم على تحصيل الثقافة والعلوم بكل الوسائل المتاحة فى ذلك الوقت .

أزهرى .. رغم أنفى !

برغم أن والد فضيلة الشيخ الشعراوى كان كريما معه . . إلى حد أنه اعتاد كما قال فى الحلقة السابقة من مذكراته منحه ريالا بأكمله عن كل قصيدة شعر يحفظها . . فإن الداعية الإسلامى الكبير يعترف فى حلقة اليوم بأسلوب معاملته لوالده وهو صبى . . لكى يهرب من الأزهر ، ندم عليه كثيرا . . بعد أن لقنه والده درسا قاسيا .

قال الإمام الكبير محمد متولى الشعراوى فى استئنافه لمذكراته :

الحق أننى أجهدت والدى كثيرا معى . . كنا وقتها نعيش فى عز كبير . . نملك الماشية والحدائق . . وننفق عن سعة . . فسألت نفسى : لماذا أترك هذا كله ، وأذهب إلى الكتّاب ؟ فكنت كثيرا ما لا أذهب إليه أصلا . . وإذا ذهبت أسارع بالهروب منه . . وكان هذا السلوك يضايق أبى كل الضيق . . لكنه كان يصر على التحاقى بعد كتّاب سيدنا بالابتدائى الأزهرى . .

وفوجئت به يوما ، قرب نهاية الأسبوع ، يقول لى : استعد ياولد . . ستكشف طبّيا يوم السبت .

فسألته : طبى يعنى إيه ؟ . .

فرد : طبى . . يعنى ستكشف على عينيك وباقى جسمك . .

فقلت لوالدى : طيب .

ثم لجأت بعدها لحيلة كانت منتشرة وقتها للهروب من المدرسة . . وضعت كميات كبيرة من الشطة فى عينىّ ودعكتهما بالطماطم . . لكى تتورما لكيلا أقبل بالأزهر . . وذهبت يوم السبت للكشف الطبى مطمئنا . . لكنها كانت أكبر مفاجأة لى . . فقد اكتشفت أنهم يقبلون حتى المكفوفين . . فندمت على ما فعلت وقلت لنفسى : ياواد كنت حتخسر عينيك ، وبرضه حتدخل الأزهر! . .

وعندما عدت للبيت ، قال لى والدى : السبت القادم سوف تمتحن فى القرآن . .

ويومها ، جلست فى لجنة رئيسها سيدنا الشيخ موسى . . كان يطلب منى أن أقرأ . . وأنا ألخبط لكيلا أقبل . . فسألنى سيدنا : أنت ابن متولى ؟

فقلت له نعم . .

فسألنى : والدك معك أم غير موجود؟

فقلت له : معى بالخارج . . فنادى سيدنا عليه : وجاء والدى ، ووقف على رأسى فى اللجنة . . وسأل أبى سيدنا : الواد ده عامل إيه . . ؟

ورد سيدنا : الواد مكار . . حافظ . . لكن عامل أنه مش حافظ . . اسأله إنت . .

فالتفت إلىّ والدى وقال لى : والله يا ابن الـ (. . .). ولو كنت مش حافظ حدخلك الأزهر برضه . .

وفعلا دخلت الابتدائى الأزهرى .

وعندما كنا نستعد لبدء الدراسة فى السنة الثالثة . . حدث ما جعلنى أغير تماما من تصرفاتى ، التى كانت تتعب والدى . . فقد أرسلت إليه ليحضر إلى غرفتى فى الزقازيق لنشترى كتب السنة الدراسية الجديدة . . وقبل أن يحضر ، ذهبت إلى محمد زكى ، صاحب مكتبة يتعامل معها كل تلاميذ الأزهر . . ووقع نظرى على عدد من الكتب الكبيرة المتجاورة . . وسألته : ما هذه الكتب؟

فقال : هذه مراجع كبيرة للعلماء . .

فسألته : ألا تريد بيعها ؟

فقال طبعا . .

فقلت له : إن والدى على وشك المجئ من البلد . . وسنأتى إليك . . وعندما يقول لك أحضر كتب سنة ثالثة . . تقدم له هذه الكتب . .

وقد كان وكانت دهشة والدى كبيرة . . كان يمسك بالكتاب بعد الآخر ، ويسألنى : الكتب دى مقررة عليكم فى سنة ثالثة ؟!

أقول له : نعم . .

وأحضر كراتين ، وملأها بالكتب ، ونادى على حنطور ووضعها فيه . وعدنا إلى الغرفة التى كانت مستأجرة لى . . وأمضى الليل بأكمله فى تجليدها بورق سولفان . . لكى يحافظ على أغلفة الكتب . . وعندما أصبحت الساعة السابعة صباحا . . قال لى : إنه سوف يعود إلى البلد بعد أن انتهت مهمته . .

وصحبته إلى المحطة ، وبقيت معه إلى أن ركب . . ولكن قبل أن يتحرك القطار . . قال لى : اسمع يا أمين

قلت له : نعم . .

وأنا كان اسمي أيضا أمين ، غير اسم محمد . .

قال لى : كتب سنة ثالثة بثلاثين قرشا ونكلة . . وعندما قال لى ذلك ارتبكت وتضايقت . . وأكمل حديثه قائلا : اسمع ، مادمت كذبت على . . أنا بأقولك كده عشان ماتفهمش إن أبوك مغفل . . لما تعرف كده أصعب عليك . . وأنا بأقولك أهه والقطر بيصفر . . روح يا بنى ربنا ينفعك باللى فيها . .

وتحرك القطار . . من يومها أصبحت طالب علم فعلا ، وتوقفت تماما عن حكايات الكتب ، والغرفة التى سرقت ، وما إلى ذلك من التصرفات الصبيانية . . بالعكس وجدتنى بعدها أقول لوالدى لأول مرة ، كفاية قوى دا كثير فكان يقول لى : ما شاء الله . إيه الحكاية ؟!

فقلت له : أنت عملت فيّ مقلب كبير ، وأنا من ساعتها التزمت .

وعندما وجدنى أبى أننى تقدمت فى العلم . . وكنت عندما تأتى الإجازة ويتجه كل الأولاد إلى مهن آبائهم . . الصانع . . والصياد . . والنجار . . كنت مع أبى فى الزراعة . . فكان يعز عليه أن أشغل بها عن العلم . .

وفكر أن أتفرغ فقط للعلم . . فلجأ إلى وسيلة ذكية . . أشاع أننى شؤم . . أروى زرعا فلا ينبت وأدير ساقية فتكسر . . ويقول للأولاد فى الحقل : إذا جاء إلى هنا أبعدوه لأنه شؤم . . لكنه فعل ذلك عامداً لكيلا أفكر فى غير العلم.

وعن أيام الشقاوة ، مازلت أذكر الكثير . . أيام ثورة ١٩ وقت أن كان الأهالى يلقون السيارات فى الترع . . والسيدات يشتركن فى الثورة . . وأذكر

عم عبد اللطيف الذى كان يقول للناس : السيارات دى ملكنا . . وكانوا يرددون : لانريدها من وش الإنجليز . . وكان معى وقتها من أصدقاء الطفولة الحاج عبد العظيم عبد البارى ، والشيخ أحمد المحلاوى ، والشيخ سيد سعود وكيل الأزهر الآن . . وكنت محتضنه . .

وسألونى : لماذا تهتم بالشيخ سيد سعود ؟

فقلت لهم : أنا أرد الجميل الذى قدمه أجداده لأجدادى . .

وكنا جميعا نشترك فى شقاوة طفولية . . لكنها كانت من نوع بناء . . فأنا مثلا كنت أحب الصلصال ، وهو الطين على جرف الترعة . . وكنت أعد منه أشكالا مختلفة . . وكل أنواع التماثيل . . الجمل . . الحمار . . الكلب . . الجاموسة . . وعندما تجف أطليها بلبن الجميز . . وكان يعطيها بريقا . . وهذا أفضل من الجملكة . . وعندما كان المفتشون يحضرون كانوا يرونها . .

وأذكر أيضا أن والدى أحضر لى مرة مطواة من السيد البدوى . كنت أمسك بالغاب وأعد منه شرائح . . وأعمل منها ساقية وقوا ديس . . وأحضر قطة وأعلقها فى الساقية وأعد لها بئرا تخرج مياها . كل شىء مثل أى ساقية عادية . . ويأتى الناس ويتفرجون .

هذه كانت شقاوتنا . . ليست مثل شقاوة هذه الأيام . . وقد انتهيت منها إلى حكمة علمتها لأولادى . . فقلت لهم : اجعلوا اللعب لعبا مثمرا ، لا لعبا مدمرا . .

كنا صغارا . . ولكننا كنا كبارا . . فكانت المساجد تقيم الذكر كل أسبوع . . ونذهب جميعا إليها ونحضر الذكر مع الكبار ، ونصلى معهم جماعة . . حتى إنفاق المال كنا فيه عقلاء . . فكان الوالد يترك لنا ليمون

الحدائق . . نبيعه لحسابنا . . وأما العنب وغيره ، فله هو . . فكنا نأخذ ثمن البيع . . ونصرفه فى أشياء مفيدة . . وكانت أحب حاجة إلينا وقتها الدندرمة . . الآيس كريم حاليا . . فكنا نلتف حول عم شعبان الذى يعد الدندرمة من اللبن الحليب فى الصيف . . وكل فلوسنا نصرفها عليها . . وأذكر أننى ذات مرة أكلت عشرة أطباق . . وكنا نركب بعدها الحنطور ، ونذهب إلى ميت غمر . . كانت هذه كل أوجه إنفاقنا . . رغم توافر النقود .

تجربتى .. مع الربا !

وبرغم أنه كان ملتزما ومنضبطا مثل كل أبناء جيله . . الذين كانوا فى صباهم صغارا . . لكنهم فى ذات الوقت كبار فى تصرفاتهم . . كما وصفهم فى الحلقة السابقة من مذكراته . . بخلاف الكثيرين من أبناء اليوم . . الذين لا يعرفون معنى الالتزام ولا قيمة الانضباط . برغم هذا كله ، كانت لإمام الدعاة فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى تقاليد خاصة يحرص عليها قبل بدء كل سنة دراسية جديدة فى المعهد الأزهرى .

يعود الشيخ الشعراوى بذاكرته إلى عام ١٩٣٠ . . ويقول :

حدث فى هذا العام أن طلبت من والدى كعادتى قبل بدء الدراسة قفطانين وكاكولتين وحذاءين وعمامتين وشنطة . . ولأن البلد سنتها كانت فى أزمة . . ولم يكن والدى يملك وقتها المبلغ الذى يشترى به . . قال لى : يا بنى . . أليس لديك ستة قفاطين ، وست كواكيل وأحذية كثيرة ؟

فقلت له : لكنى أريدها جديدة . .

وخرج والدى وعاد بعد وقت قصير ، ومعه كل ما طلبت . . ولم أكن أعرف من أين جاء بالمبلغ المطلوب . . لكنى عرفت فيما بعد حين تعرضت لموقف عصيب . . وأذكر أنه بعث يومها وأحضر لى أيضا عشرة جنيهات . .

وأخذ يعدها ورقة ورقة . . فسألته : إيه الحكاية ؟! عمرك ما عديت الفلوس بالشكل ده . .

ورد والدى : لكى تتذكر ، وترد المبلغ بعد أن تتوظف . .

فقلت له : ربنا لا يحوجك لى . .

ووجدت الرضا يرتسم على وجهه . وهو يقول لى : كفاية قوى الدعوة دى يا بنى .

وحدث أن مرضت خلال الدراسة ، وبقيت مريضا ستة أشهر . . ولم أدخل الامتحان . . وحزنت كثيرا . وقلت لوالدى : لابد أن أدخل الدور الثانى . . وفوجئت به يقول لى : لا تزعل . . أنا عارف أنها مش نافعة . .

وسألته : ليه ؟!

فقال : الفلوس التى أخذتها أول السنة كانت بالربا . . والسنة ضاعت وخلاص . لكنى خدت درس يا بنى . . وبإذن الله ، ربنا يبارك فيك السنة الجاية . .

وكان أبى أكثر تأثيرا فى حياتى من أمى . . والشاهد على ذلك أننى كنت جالسا معه ، وقلت له : أريد أن تكلمنى بصراحة . . لماذا كان حرصك على دخولى الأزهر ؟

فقال لى : هل أنت مصر ؟

فقلت له : نعم . .

فحكى أننا كنا فى الشتاء ، وفى إحدى الليالى ، بعد صلاة العشاء ، وجد شخصا ينام إلى جوار المنبر ، فعرف أنه غريب ، فسأله : يا عم أنت لك حد هنا ؟

فرد على والدى :

أنا غريب . .

فاصطحبه والدى ليبيت عندنا فى القاعة ، لأن الدنيا كانت بردا . . ولاحظ أن الغريب كان يحك جلده كثيرا ، وهو يتناول العشاء . . فعرف أن ملابسه غير نظيفة ، فأحضر له قميصا وجلبابا من ملابسه ، وقال له : ألبس دول . .

ولم يتردد الرجل . . لكنه لم يكد يرتدى القميص حتى نام على الفور إلى الصباح ، والجلباب فى يده . فعرف والدى أنه مجهد ، فطلب من أمى غسل ملابسه . . ولما رأت أن تقوم بذلك فى الصباح . . قال لا . . . أريد غسلها الآن .

وبالفعل ، أحضر بنفسه حلة ، وقام بتسخين الماء ، واشترك أبى مع أمى فى غسل ملابس الغريب . . وقاما بنشرها على أسياخ حديد فى القاعة لأنها دافئة .

وفى صباح اليوم التالى ، قال والدى للضيف الغريب : تناول إفطارك ، وخذ ملابسك فى لفة ومعها الملابس التى عليك .

وقال إن الغريب سأله : من الذى غسل الملابس ؟

قال له والدى إن والدتى هى التى غسلتها .

فقال الغريب : إن شاء الله سوف ترزق بعالم .

ولم يكن يعرف أنها حامل . . وأخذها أبى على أنها مجرد دعوة رجل طيب . . ولو أنها لصقت بذهنه لأنه كان يحب العلماء .

ومرة أخرى ـ كما حكى والدى أيضا ـ حدث يوم ولدت أن تأخر بعض الوقت عن صلاة الفجر . . فسأله خاله : ما الذى أخرك يا متولى ؟!

فأجاب والدى : لأنها تلد .

كان رجلا متدينا : يا سلام . . أنا رأيتها الليلة الماضية فى المنام . . وقد وضعت كتكوتا يقف فوق المنبر ويخطب . . فسألت : من هذا ؟! وقالوا لى ابن متولى الشعراوى . . وعرفت أن ابنك سوف يكون من العلماء .

من هاتين الحكايتين ، أيقن والدى ـ كما قال لى ـ أننى سوف أكون عالما . . ولهذا كان إصراره على التحاقى بالأزهر .

أما أمى ، فكانت فطرية إلى حد يقرب من السذاجة . . ولكنك لا تراها إلا وهى تعمل أى شىء فى البيت . . وكانت لى عمة اسمها جوهرة ، جميلة جدا . . إلى حد أننى فى يوم من الأيام ذهبت إليها وهى نائمة ، ومعى مسطرة ، وقست سعة عينيها فوجدت أنها أوسع من فمها . . وحدث أن مات زوجها . . وبعد ٣ شهور تقدم إليها عريس ، ووافق أبى فورا . . وسألته أمى : وأولادها الثلاثة تتركهم لى . . وأتعب وأشقى ؟

فقال لها : دى جميلة قوى وهتخيلنى . . يبقى لازم تتجوز . . ولو خدمت أولادها ، ربنا سوف يرسل إليك من يخدم أولادك .

وتزوجت عمتى . . وتركت أولادها الثلاثة . . بنت عمياء . . والثانية جحظاء العينين . . ومحمد . وقال والدى : سبحان الله . . المكفوفة تعلمت ، والجاحظة بقيت فى البيت تخدم الجميع . . والثالث محمد ، وكان أكبر منى بسنتين .

وكان والدى عندما يعطى ابن عمتى منابا ، كان يتعمد أن يكون أكبر من منابى . . فقالت له أمى ، وهى غاضبة : بقى أنا أطبخ وأسوى وأعمل ، وبعدين تدى لمحمد أكبر من مناب ابنى أمين (الذى هو أنا) ؟!

فقال لها : أنا عندى حل .

وأصبح يضع مناب محمد مع منابى فى طبق واحد . . ويطلب منا أن نأكل معا .

وبعد أن ذهبت إلى الأزهر فى الزقازيق ، وجدت محمد تحت أمرى يعد لى كتبى ، ويقوم بكى ملابسى . . وترتيب كل ما يخصنى . . فقال أبى لأمى : أرأيت ؟! الآن بعث الله ابنها ـ يقصد عمتى ـ عند ابنك خادما . . لأنك خدمت أولادها .

وبعدها ، أراد أبى تزويجى . . وأصر على أن نتزوج أنا وابن عمتى فى ليلة واحدة . . لكيلا يبقى ابن عمتى معى وهو أعزب وأنا متزوج . . وبالفعل تزوجنا معا . . وأنجب بعدها ابن عمتى ولده عبد المنعم ، ومات .

ولأن والدى كان يعشق تربية الأيتام ، أصر على أن الولد يتربى عنده ، وقال لأمى : أرى أن يتزوج ابنى السيد ـ أى شقيقى ـ شريفة أرملة محمد . . أى ابن عمتى الذى كان يخدمنى ، وتوفى .

وهدد أبى والدتى بأنها إن لم تنفذ ذلك ، فسوف يتزوجها هو وردت والدتى على أبى وهى تتحداه : تزوجها يا متولى .

وفعلا تزوجها . . وكان والدى إلى هذا الحد يحافظ على صلة الرحم ويرعاها . . وقد تعلمت منه هذا ، وعملت به طوال حياتى .

وأذكر أيضا من هذه الأيام أننا كنا نقيم موسما سياسيا فى ذكرى سعد . . ونحيى الذكرى بحفل كبير . وبعد أن انتهى الحفل الذى ألقيت فيه كلمة كأحد شباب القرية . . وعدت إلى بيتنا الذى كان قريبا من الجرن الواسع المقام فيه الصوان . . وجدت أمى تجلس على باب البيت . . فقلت لها : مساء الخير

لكنها لم ترد . . فسألتها : ماذا حدث ؟

فقالت لى : هس ما تتكلمش .

وسألتها متعجبا : أنا زعلتك فى حاجة ؟!

فردت أمى فى ضيق : كل الناس قالت كلامها فى أمان الله . . وأنت كل ما تيجى تتكلم ، الناس تقول لك : عيد عيد . . مش تبقى تحفظ كويس يا بنى؟!

وأخذنى أبى على جانب ، وقال لى : اصبر يا بنى . . ألم أقل لك إن والدتك فهمها على قدر حالها ؟! ففى حين كان الناس يقولون لك أعد لاستحسانهم كلامك . . فهمت هى أنهم يقولون لك عيد أى راجع نفسك . وصحح كلامك .

والغريب أن مصطفى النحاس كان قد سمع هذه الواقعة فقال لقريب لى اسمه مصطفى نصرت : أنا عايز أشوف أم الشعراوى .

وعندما ذهبت إليه ، سألها : الواد لسه ما بيحفظش يا حاجة ؟ فردت عليه قائلة : لا . . أنا فهمتها ، فهمتها !!

فى جوار سعد زغلول

فى الحلقة الثامنة من مذكرات إمام الدعاة فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى يستعيد الأيام الغالية التى عاشتها قريته « دقادوس » إلى جوار قرية زعيم الأمة سعد زغلول ، التى كانت تحمل اسم « مسجد وصيف » ، والتى كان بطل ثورة ١٩ يقيم فيها فترات طوالا . . ترسخت خلالها أواصر الصلة والصداقة مع جيرانه ، ومن بينهم الشيخ الشعراوى .

يروى إمام الدعاة ذكرياته مع هذه الحقبة العزيزة من تاريخ مصر الوطنى قائلا :

كانت قريتنا تمتاز بسمتين . . أولاهما أنها تشترك مع كل بقعة على أرض مصر فى تلك الحمى الوطنية التى فجرتها ثورة سنة ١٩ . . والثانية ، أنها كانت تجاور قرية « مسجد وصيف » بلد زعيم الثورة سعد زغلول . . والذى كان لا يمر علينا اليوم إلا ونذهب إليه لزيارته .

وأضيف إلى ذلك واقعة أخرى خاصة ، فقد حدث أن وقع سعد زغلول من فوق الحمار ، وهو يحمله متجولا فى القرية ، وكسرت ساقه . . وفى الحال ، استدعوا له الأطباء . . من القاهرة طبعا . . وتصادف أن كان فى قريتنا أسرة تعرف باسم « المجبراتية » وكانت شهرتها واسعة ـ حتى النساء منها ـ فى أعمال تجبير الكسور . . وشارك كبيرها الشيخ سيدى أحمد أطباء القاهرة فى

علاج الزعيم . . وسجلت لنا هذه المكرمة فى علاقتنا معه . . وأصبحت عادة متبعة للآباء أن يصحبوا أبناءهم معهم ليروا سعد باشا فى قريته . فكنت أواظب على زيارته فى صحبة والدى وعمى طوال فترة علاجه .

وأذكر من هذه الأيام . . أنه حدث أن حضر أحد الشعراء ، وكان اسمه الجيهارى ، وأراد أن يرى الحمار الذى أسقط من فوق ظهره سعد باشا . . فأحضروا له الحمار . . وكنت يومها فى قرية الزعيم ، وتساءلنا : ما الذى سوف يفعله هذا الشاعر بالحمار ؟! هل سيركبه أم سيضربه ؟

وفوجئنا عندما أوقفوا الحمار أمامه ينشد فيه شعرا قائلا :

حمار الزعيم . . زعيم الحمير ... على عرش ملك الحمير أمير
أقام الحمير له حفلة ... وأعطوه قفة من شعير
فإذا كان للتاكسى صفارة ... فإن النهيق مكان الصفير

وبالطبع ، انطلقنا جميعا نحن الصغار فى الضحك .

والحق أنه من مزيج هذا المواقف ، ومن الحكمة الفطرية الصافية التى أخذناها من أبناء القرية . . مع ما أفدناه من دراستنا بالأزهر فيما بعد . . تكونت لدينا من ذلك كله خميرة عجنت فى عقولنا ، وأنضجت لنا ثقافات واسعة خدمتنا كثيرا فى حياتنا .

ولأننى كنت أشتهر بصداقتى مع الأكبر منى سنا . . بل ومن هم فى عمر أبى وأكبر . . كان أقرانى الصغار يغضبون منى ، لأننى أتركهم . . وكنت أقول لهم : لماذا أجلس معكم ؟ . .

فيتساءلون : ما الذى تفيده من الكبار ؟

وأذكر أننى رويت لهم واقعة تعبر بجلاء عن مدى الإفادة من صحبة الكبار . . قلت لأقرانى : إننى ذهبت يوما مع والدى لزيارة عمدة قرية كفر أبو لقمان ، لأنه كان مريضا . . ولما دخلنا عليه ، قال لأبى : أهلا أبا عبد الحافظ ، لقد حضرت فى وقتك . أرجو أن تنادى على ابنى محمود .

فنادى أبى عليه . . وقال له العمدة : يا بنى أنا فى مرض الموت . . وبكى ابنه ، فقال له أبوه العمدة : إسمع يا بنى كلامى ، واترك البكاء الآن . . العمدية فى بيتنا من مائتى سنة ، وأنا أمنيتى قبل أن أموت التأكد من أنك لن تتخلى عنها . . لابد أن تصبح عمدة ، لكنى أريد أن أعرف أولا . . هل ستصلح عمدة أم لا ؟ افرض أنك جالس على المصطبة اللى بأجلس عليها قدام الدار . . وجالك اتنين مختلفين . . واحد منهم طيب ، والثانى نحس ، تعمل إيه ؟! فرد عليه ابنه : والله يا أبى . . أحط الحق على الطيب ، لحد ما أطوى النحس !

وضحك أبوه ، وقال له : كويس . طيب افرض أن الاثنين كانوا نحس؟!

فرد ابنه : أحط الحق علىَّ أنا وأشيله لحد ما أطويهم الاثنين .

فقال له أبوه : والله كويس . . طيب افرض الاثنين طيبين ؟

فقال له : يا أبى لو الاثنين كده مايجوليش .

بعد أن انتهيت من هذه الرواية لأقرانى ، قلت لهم : لم يكن ممكنا لو لم أصحب والدى فى هذه الزيارة أن أتعلم هذه الحكمة الفطرية من العمدة وابنه .

ونصيحتى هنا للشباب أن يحرصوا دائما على الإفادة من تجارب من هم

أكبر منهم سنا . من خلال صداقتهم التى يعرض بها الشباب من أعمارهم . . لأن العمر لا يملكه أحد طولا ولا قصرا . . هذا لله وحده . . وإنما يستطيع الإنسان أن يعرضه . . وربما يكون عرضه أكبر من طوله . . وتعريض العمر يكون بتطبيق تجارب الآخرين . . وأيضا يمكن أن يوسع عمره بأن ينشر على مدى واسع علاقاته مع الآخرين. وهناك بعد ثالث للعمر . . بأن تعطيه عمقا . فبعد أن كان مسطحا يصبح له حجم . . بمعنى أن يترك العمر بعد أن ينتهى دروسا للآخرين .

وهذه صفات العمر للعقلاء الذين نقرأ لهم ونفيد منهم . ولهذا كان أبى يسر للغاية لمصاحبتي للكبار . . لأنه كان يجد شبابى محروسا بشيخوخة الكبار . . فقد كنت أخجل وأنا جالس معهم أن أقدم على تصرف صغير أو كلمة سيئة . . وهذا جعلنى أستقبل الحياة بمنتهى الجدية . . إلى حد أن فترة المراهقة مرت بى ولم أدر بها . . لأننى كنت دائما كبيرا مع الكبار . . وحتى عندما كنت أتعرف على الشباب في مختلف المهن والحرف . كان يهمنى أن أكتسب منهم لنفسى أكبر حصيلة من المعلومات . . ولا أجاريهم بعد ذلك فى أى تصرف من تصرفات الشباب فى سن المراهقة .

ومن أطرف ما أذكره من هذه الأيام ، أننى كنت أتعامل مع حائك ملابس كان من قبل صبيا لحائك ملابس أبى . . ولكن كان مقصه كويس جدا . . وكان أكبر منى . . ويتمتع بذكاء فطرى . . وحدث أن طلبت منه تفصيل ست جلاليب . . وعندما جاء بها ، وارتديت إحداها ، وجدت أنه أخطأ فى التفصيل ، واختصر من الطول حوالى عشرة سنتيمترات . . ولما لمح فى نظرتى أننى على وشك الانفجار من الضيق . . وأراد أن ينهى المسألة . . قال لى : اجلس أنت وسوف اشرح لك كل شىء .

فجلست فوق الكنبة . . وبدأ يعدل من وضع الجلباب على جسمى إلى أن غطى تماما الساقين وقال لى : أرايت ؟! أنا فصلت الجلباب للجلوس .

وهكذا ، أنهى بذكاء شديد المسألة وانتزع منى الابتسامة والضحك . . وقلت له : خلاص المسألة انتهت . . أرجو أن تأخذ الجلاليب لمن تكون على مقاسه ؟

ومن هذه الواقعة ، تعلمت أننى عندما أخطئ عن غير قصد . . يمكننى أن أفلت من المأزق لو فكرت واستخدمت الذكاء وروح المرح .

عرفونى .. شاعرا !

ومن ذكرياته التى يعتز بها كل الاعتزاز أيام أن كان يحرص على صحبة والده في زياراته المتكررة لزعيم الأمة سعد باشا فى قريته المجاورة « مسجد وصيف » . . ومن الدروس الغالية التى أفادها من حرصه على صحبة الكبار في سن والده ، وربما أكبر منه ، كما روى فى الحلقة السابقة من مذكراته . يواصل اليوم فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى حكاياته التى لا ينساها فى أيام الصبا . . وبالأخص ما يتعلق منها مع موهبته فى إقراض الشعر .

يروى إمام الدعاة الشيخ الشعراوى وقائع متفرقة ، الرابط بينها أبيات من الشعر طُلبت منه وقالها فى مناسبات متنوعة ، وخرج من كل مناسبة كما هى عادته بدرس مستفاد . . يقول :

لأننى كنت فى خلقى مع الناس لا أمكن أحدا من أعدائى من النيل منى أبدا . . وإلى الآن مازلت على هذه الوتيرة . . فقد حدث أيام الجماعة الأدبية التى كنت أرأسها حوالى عام ١٩٢٨ . . والتى كانت تضم معى أصدقاء العمر : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ـ أطال الله عمره ـ والمرحوم محمد فهمى عبد اللطيف ، وكامل أبو العينين ، وعبد الرحمن عثمان رحمه الله . . حدث أن كانوا على صلة صداقة مع شاعر مشهور وقتها بطول اللسان والافتراء على أى إنسان ، اسمه عبد الحميد الديب ، صاحب قصيدة « دع

الشكوى وهات الكأس واسكر » . . والذى لم يسلم أحد من لسانه . . والذى كان يعيش على هجاء خلق الله إلى أن يمنحوه مالا .

وجاءت ذات ليلة سيرتى أمامه . . وقال له الأصدقاء أعضاء الجماعة الأدبية عن كل ما أقرضته من قصائد شعرية . . فرد وقال : الشيخ الشعراوى شاعر كويس ولكن لا يصح أن يوصف بأنه شاعر . .

ولما سألوه : لماذا ؟ . . قال : إن المفترض فى شعر الشاعر أن يكون مجودا فى كل غرض . . وهو لم يقل شعرا فى غرضين بالذات .

ولما حكوا لى عن هذا الذى قاله الشاعر عبد الحميد الديب . . قلت لهم : أما إحدى الدعويين وهى أننى لم أقل شعرا فى الغزل . . فأرجو أن تبلغوه بأننى أقرضت الشعر فى الغزل أيضا . . لكنه غزل متورع . . وانقلوا إليه الأبيات عنى . . والتى قلت فيها :

من لم يحركه الجمال فناقص تكوينه
وسوى خلق الله من يهوى ويسمح دينه
سبحان من خلق الجمال والانهزام لسطوته
ولهذا يأمرنا بغض الطرف عنه لرحمته
من شاء يطلبه فلا إلا بطهر شريعته
وبذا يدوم لنا التمتع ها هنا وبجنته

وأما عن الهجاء ، فقلت لأصدقائى : إننى لا أجد موضوعا أتناوله إلا أن أهجو عبد الحميد الديب نفسه . . ولن أشهر به . . ولكن فليأت إلينا . . ويجلس معنا . . وأقول له إننى سوف أهجوك بكذا وكذا . . ثم أخبره بعد ذلك أن يعلن هجائى له أو لا يعلنه .

وقد تحدانى ، وقدم إلى منزلى بباب الخلق ، وسألنى : ما الذى سوف تقوله فى عبد الحميد الديب يا بن الشعراوى؟

فقلت له : والله لن أقول شعرى فى هجائك لأحد إلى أن تقوله أنت . . يعرف الناس أنه هجاء قوى وشديد ومقذع . . ولهذا فأنا أقطع بأنك لن تكرر على مسامع الناس هجائى لك .

وبالفعل ، ما سمعه عبد الحميد الديب منى فى هجائه لم يستطع ـ كما توقعت ـ أن يكرره على مسامع أحد . . ولذلك ، كنت الوحيد من شلة الأدباء الذى سلم من لسانه بعدها . . لانه خاف منى ، وعلم قوتى فى شعر الهجاء أيضا .

ومن هنا ، ترسخ يقينى بأن التصدى للبطش والقوة لا يكون إلا بامتلاك نفس السلاح . . سلاح القوة ، ولكن بغير بطش .

وأذكر بعدها عندما جمعنى المعهد الأزهرى مع شلة الأصدقاء . . أن طبع لى محمد فهمى عبد اللطيف قصيدة فى الإسراء والمعراج من حوالى ٦٠٠ بيت ، وقام بنشرها فى عام ١٩٣٢ . . وكنا فى كل مناسبة نعقد ندوات ونلقى بالأشعار ، وكان هذا مبعث نهضة أدبية واسعة فى زماننا . . كانت معينا لا ينضب لغذاء القلب والعقل والروح لا يفرغ أبدا .

وأذكر من هذه الأيام أن كنا نحيى فى قريتنا ذكرى الوفاة الأولى لرحيل حبيب الشعب سعد زغلول . . وطلب منى خالى أن أقرض أبياتا فى تأبين الزعيم . . فقلت على ما أذكر :

عام مضى وكأنه أعوام

يا ليته ما كان هذا العام

ويومـهـا ، قـال لى خـالى ويسـمع من سـمـعـونى : يا أمين . . قلت وأوجزت . . وعبرت . . عما يجيش فى صدور الخلق . .

وحرصت من يومها على أن أتجه فى قصائدى إلى المعنى المباشر من أقصر طريق . . بغير أن أحوم حوله طويلا . . لأن هذا يكون الأقرب فى الوصول إلى أعماق القلوب . . خاصة إذا ما عبرت الكلمات ببساطة ووضوح فى غير نقص . . وربما هذا مع مـخـاطبـتى للعـقل هو مـا يغلب على أحـاديثى الآن للناس .

وأيضا ، لا أنسى من هذا الزمن . . يوم زارنا فى قريتنا ـ التى كان يقطنها معنا إخوان لنا مسيحيون نصران ـ المنصورة فى كنيسة العذراء . . وتصادف أن توافقت هذه الزيارة مع حلول العيد الكبير . . فطلب منى خالى تحية بالشعر لهذه المناسبة فقلت :

اليوم حل بأرضنا عيدان

عيد لنا وزيارة النصران

وعلى هذا النحو ، كانت تتأصل فى القرية المصرية روابط المحبة والأخوة العـمـيـقـة بين عنصرى الأمـة ، وتربينا على هذا الحب وتلك الأخـوة منذ صغرنا . . وكان الكبار من آبائنا وأخوالنا وأعمامنا يغرسون فينا هذه الروح السمـحة التى اقترنت مع الحمى الوطنية التى اجتاحت الجـميع . . مسلما ومسيحيا بغير تفرقة . . والتى شارك إخواننا المسيحيون بكل الإخلاص للوطن فى جـمـيع مـا أنجبتـه من أحـداث غـاليـة فى تاريخنا الوطنى . . ولعل الذين يسعون لإحداث الفرقة وإيقاع الفتنة يعون ذلك .

ولعلى أسوق هنا من أحداث هذه الفترة مظاهرة الجامعة ، وحكاية كوبرى

عباس الذى فتح على الطلاب من عنصرى الأمة ، وألقوا بأنفسهم فى مياه النيل ، شاهد الوطنية الخالد لأبناء مصر . . فقد حدث أن أرادت الجامعة إقامة حفل تأبين لشهداء الحادث ، ولكن الحكومة رفضت . . فاتفق إبراهيم نور الدين رئيس لجنة الوفد بالزقازيق مع محمود ثابت رئيس الجامعة المصرية على أن تقام حفلة التأبين فى أى مدينة بالأقاليم . . ولا يهم أن تقام بالقاهرة . . ولكن لأن الحكومة كان واضحا إصرارها على الرفض لأى حفل تأبين ، فكان لابد من التحايل على الموقف .

وكان بطل هذا التحايل عضو لجنة الوفد بالزقازيق ، حمدى المرغاوى ، الذى ادعى وفاة جدته ، وأخذت النساء تبكى وتصرخ . . وفى المساء أقام سرادقا للعزاء ، وتجمع فيه المئات وظنت الحكومة لأول وهلة أنه حقا عزاء . . ولكن بعد توافد الأعداد الكبيرة بعد ذلك ، فطنت لحقيقة الأمر . . بعد أن فلت زمام الموقف . وكان أى تصد للجماهير يعنى الاصطدام بها . . فتركت الحكومة اللعبة تمر على ضيق منها . . ولكنها تدخلت فى مدة الكلمات التى تلقى ، لكيلا تزيد للشخص الواحد على خمس دقائق .

وفى كلمتى بصفتى رئيس اتحاد الطلبة ، قلت : شباب مات لتحيا أمته ، وقبر لتنشر رايته ، وقدم روحه للحتف والمكان قربانا لحريته ونهر الاستقلال .

ولأول مرة يصفق الجمهور فى حفل تأبين . . وتنازل لى أصحاب الكلمة من بعدى عن المدد المخصصة لهم . . لكى ألقى قصيدتى التى أعددتها لتأبين الشهداء البررة والتى قلت فى مطلعها :

نداء يا بنى وطنى نداء

دم الشهداء يذكره الشباب

الخروج .. من المأزق

تتواصل حلقة اليوم من مذكرات إمام الدعاة الشيخ متولى الشعراوى، مع ما انتهى إليه فى حلقة الجمعة الماضية من تلاحم عنصرى الأمة فى ثورة الشعب بزعامة سعد زغلول سنة ١٩١٩ . . يروى فى هذه السطور مواقف لا ينساها شارك من خلالها فى الحركة الوطنية التى امتزجت فيها ثورة الأزهر مع ثورة سنة ١٩١٩ .

يقول فضيلة الإمام محمد متولى الشعراوى :

من أغلى ذكرياتى مع ثورة الأزهر التى تفجرت بسبب تصريح هور سنة ١٩٣٤ ، أننى كنت الوحيد من إخوانى المشاركين فيها الذى ظل طليقا لفترة طويلة ، بغير أن أتعرض لما تعرض له زملائى من القبض عليهم وتقديمهم للمحاكمة .

فقد كان رجال الحكومة يأتون إلى اجتماعاتنا ، ويندسون فى الزحام ، وينادون يا شيخ شعراوى . . فيلتفت أحدنا لمصدر النداء تلقائيا . . فيسارعون إلى الإمساك به . . بينما أنا ألتزم الصمت ولا أرد . . وبهذه الوسيلة أفلت منهم ، وهم يكررون محاولة الإمساك بى .

وبقيت والحمد لله ناجيا من قبضتهم ، إلى أن حدث ما لم يكن ممكنا أن

أظل بعيدا عن متناول يدهم . . فقد أخذوا أبى وأخى من القرية . . وأبلغنى الأهل فى الزقازيق بما جرى . . وتكاد كلمة أبى الحزينة ترن فى سمعى إلى الآن حينما قال بعد أن أفرجوا عنه وأمسكوا بى : الله يرحمك . . وأنت الذى فعلتها بناء على رغبتك . . ومادامت هذه رغبتك تحمل يا بنى .

وأذكر أنه كان بين الذين شهدوا الإمساك بى صحفى اسمه محمد عبد السلام . . ناديت عليه ، وقلت له : هات ورقة واكتب هذه القصيدة عنى . . وكان مطلعها :

سر بى إلى السجن واذهب بى إلى الهون
فإننى لمصيرى غير محزون
فما اعتقلت بجرم نال من شرفى
لكننى بالمعانى جد مفتون
فثورة الحق الإجماع زينتها
وثورة الحق لا ترضى بمظلوم
يسير مثلى لبيت جاء ساكنه
كبائر الإثم بالأوغاد مشحون
فهل تسوى به نفس لها أمل
شتان مابين فتان ومفتون
الصبر يا والدى عهدى به رجلا
له فى الخطب رأى غير مأفون
وطب شقيقى فؤادا كفاك فخرا
قد كنت بالسجن لكن ليس مسجون

وكتب محمد عبد السلام القصيدة بأكملها ونشرها فى جريدة الجهاد ، وكانت من مستندات الاتهام ضدى . . وأخذونى بها إلى مأمور الزقازيق ، وكان اسمه وجدى ماهر . . ولما رآنى ، قال لى : والله وقعت ياشيخ شعراوى .

فقلت له : بيدى لا بيد عمرو . . أنا اللى جيت بنفسى .

فاصطحبنى إلى وكيل النيابة ، وقال له : أهه وقع أهوه . .

فقلت لوكيل النيابة : السيد المأمور ، مهمته أن يحضرنى لك ، وقد فعل . . والآن ، لابد أن يخرج وإلا فلن أتكلم .

فقال المأمور محتجا : شوف يا حضرة الوكيل ، مصيبة البوليس أنه يعمل فى أمة جاهلة .

وعاجلته برد عنيف قائلا : لا والله . . الحقيقة أنها مصيبة الأمة التى يعمل فيها بوليس جاهل . . يسوى بيننا وبين اللصوص .

ومن غضب وكيل النيابة من تراشقى ، أنا والمأمور بالكلمات . . بدأ فى الحال تحقيقه معى . . وانتهى الأمر إلى الحكم بحبسى شهرا .

ولكن عندما جاء مصطفى باشا النحاس إلى الحكم سنة ١٩٣٦ ، ألغى كل هذه الأحكام . . وحرق القضايا فى ميدان العتبة . . وأعادنى الشيخ المراغى ، وكان قد أصبح شيخا للأزهر ، إلى دراستى بالمعهد ، وأقمنا له حفل التكريم المشهور بهذه المناسبة .

بعدها ، انخرطت فى دوامة الأحزاب . . وكان الصراع شديدا وقتها بين الوفد والإخوان والأحرار والدستوريين والسعديين ومصر الفتاة . . حدث عندما دخل مصطفى باشا الانتخابات ونجح فيها .

مع عبد الناصر وشوقى

فى مواصلة إمام الدعاة فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى لمذكراته ، يتبع منهجا متفردا . . فلا يمضى كما هو متبع فى مذكرات غيره من أهل القمة فى تسلسل الأحداث عبر مراحل زمنية متتابعة ، تسلم الواحدة منها حديث الذكريات إلى المرحلة التالية . . لكنه يترك نفسه حرا لما يطرأ على ذهنه من أحداث ومواقف أى مرحلة عمرية ، بحيث ينتقل كالفراشة التى تحط فوق الزهور ، وتشتم رائحة الأيام التى خلت . . وتنفث عبيرها ودروسها فى حديث الذكريات . . ومن خلال هذا المنهج المنطلق ، فإنه قد يسرد أحداثا من مرحلة عمرية متقدمة ، ثم يعود فى حلقة تالية إلى أحداث من مرحلة عمرية سابقة . . وعندما تكتمل مذكراته يكون إمام الدعاة قد غطى جميع مراحل عمره المديد بإذن الله فى خدمة رسالة الإسلام .

يقول فضيلة الشيخ الشعراوى :

من الأحداث التى مرت بى ، وأعتز بها والحمد لله . . أنه عندما رفض الشيخ المراغى ، شيخ الأزهر ، التعاون مع الوفد وتحقيق مطالبنا ، كتبنا عريضة مطولة ورفعناها للملك . . وفوجئنا بعدها بنقلنا نحن السبعين عالما الذين وقعوا على العريضة إلى أماكن مختلفة . . وكان نصيبى أن أنقل إلى الإسكندرية ، وكان ذلك فى عام ١٩٤٥ . . وحدث بعد فترة وجيزة ، أن رأى

كل الإخوان ضرورة أن نذهب إلى الأزهر لنسأل عن حيثيات نقلنا فى نصف السنة الدراسية .

وتوجهنا إلى مكتب الشيخ المراغى . . لكنه لم يكن قد وصل إلى مكتبه من حلوان حيث يسكن . . وكان الموجود وقتها هو الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر . . فدخلنا إليه ، وقلنا له : نحن نريد فقط ياسيدنا الشيخ أن نعرف : لماذا نقلنا ؟! بأى حيثيات نقلنا ، وبالذات فى نصف السنة ؟! وكان أن نظر إلينا شذرا ، وقال لنا : بقى يعنى رئيس المصلحة ليس له صلاحية فى أن ينقل من يريد نقله من مرءوسيه فى أى وقت ؟!

وفى لهجة آمرة ، قال لنا : كل واحد فيكم يذهب فورا إلى المكان الذى نقل إليه ، ولن نرجع أبدا فى قرارنا .

وأنا لم يكن قد مر على تعيينى سنة . فقلت لزملائى : بنا نعود يامشايخ إلى معاهدنا .

ونظرت إلى وكيل الأزهر ، وقلت له : والله لن تذهبوا بنا إلى مكان ليس به الله .

ولحظتها ، خلع الرجل نظارته . ولم يتركنا نخرج من مكتبه . إلا بعد أن قال لنا : اخفوا ، ارجعوا إلى معاهدكم قبل النقل . روحوا روحوا .

وانطلقنا فرحين ، فهمس فى أذنى زميلى الشيخ عبد الله ، متسائلا : يا شيخ شعراوى أنت جبت الكلمة دى منين ؟!

فقلت له : والله الكلمة هى اللى جت على لسانى .

وعندما أصبح الشيخ عبد الرحمن حسن شيخا للأزهر ، وأنا مديرا للأزهر . . جاءوا بصورة لجمال عبد الناصر ، وهو يصلى ، ووضعوها فى

مكتبه . . ووجدوا أن هذا يكون مناسبا . . و قال لى شيخ الأزهر : ماتكتب لنا كلمتين نضعهما تحت الصورة الواقفة دى .

فسألته . وكان يحبنى جدا : هل هذا توجيه أم تطوع بالنفاق ؟

فضحك . . وقلت له : طيب أنا حاكتب كلمتين . . لكن بشرط أنك تكتب ورايا بخط إيديك .

والتقط ورقة ، وقال لى : موافق . . أنا حاكتب .

فقلت له : إذن أكتب بخط واضح .

والله يرحمه كان من أبناء الأكابر . . وأمليته :

غـدا تتـوارى فى سـراديب من مـضى
ويمضى الذى يأتى لسـردابكم حـتـمـا
ولـن يـقـف الـدولاب والـلـه دائـم
فـليـتـكـم لما . . تـذكـرتموا لما

وفوجئت بالشيخ حسن يقول لى : أبدا . . لا أقدر على كتابة هذا أبدا . .

ولا أنسى يوم ما أعرب جمال سالم عن رغبته لزيارة الأزهر . . وأراد أن يعقد اجتماعا لمجمع بحوث العلماء ، ليتخذوا قرار تحديد النسل . . فقال لى شيخ الأزهر وقتها : أنا مريض من الآن ولن أحضر .

كان يمقت جدا كلمتى شيوعية واشتراكية . . وقال لى : أنت مقرر المجمع ، اعرف شغلك .

وجاء يوم الثلاثاء المحدد لموعد الزيارة . . وانتظر جمال سالم طويلا داخل

قاعة اجتماع مجمع بحوث العلماء . . وكل نصف ساعة ، يحضر عالم واحد . . فغضب جمال سالم ، وكان سليط اللسان ، وقال : إيه العلماء دول؟!

فقلت له يا سيادة عضو مجلس الثورة : أنت جئت فى سيارة خاصة ، وأمامك موتوسيكلات مصفحة ، ودول غلابة وجايين متشعبطين فى المواصلات . وعلى كل حال ، انتظر بعض الوقت . الساعة لم تزل العاشرة والنصف صباحا . . وأنا على أى حال أحمد الله .

فقال جمال سالم : العلماء طبعا لابد أن يحمدوا الله .

فقلت له : إننى أحمده لأمر مختلف .

فسألنى : على ماذا ؟

فقلت له : لأن أعضاء مجمع بحوث العلماء لم يجتمعوا من قبل ، ليقروا تحديد النسل قبل أن تحمل أم جمال عبد الناصر فيه . . وإلا كانت الدنيا تخسر خسارة كبيرة جدا .

فسكت جمال سالم فترة ، ثم قال : لما ييجوا العلماء ، ابقوا اعملوا قرار واحضروا به إلينا .

ولم يحضر بقية العلماء ، ولم ينعقد الاجتماع .

وأما أن الشعراء أحمد شوقى فقد التقيت به مرة واحدة . وكنت غاضبا ، لأننى كنت أحبه ، وفوجئت يوما بقصيدة له نشرتها الصحف يوم العيد يقول فيها :

رمضان ولى هاتها ياساقى

مشتاقة تسعى إلى مشتاق

وكأنه امتنع فقط فى رمضان عن الخمر . . وكان صعبا جدا بالنسبة لى أن الذى قال هذا فى الخمر هو شوقى ، الذى قال قصائده العظيمة فى المناسبات الدينية الجليلة .

فقلت للشيخ مصطفى البياضى الذى عرفنا شوقى عن طريقه : لابد أن أذهب لمقابلة هذا الرجل .

وكنت فى سن الشباب . . وجئنا إلى القاهرة . وكان الشيخ مصطفى يعرف شخصا يعلم دائما بالمكان الذى يوجد فيه شوقى . . وقال لنا إنه موجود فى عش البلبل عند الهرم . . واصطحبنا إليه . . وقال لشوقى : هؤلاء شبان من أشد المعجبين بك ، ويحفظون شعرك كله ، ويأملون فقط فى رؤيتك .

فسألنى شوقى : ما الذى تحفظه عنى ؟

فعددت قصائد عديدة له . . فسألنى : ومن الذى دفعك إلى هذا ؟

فقلت له : إن والدى كان يمنحنى ريالا عن كل قصيدة أحفظها لك .

فابتسم ، وقال لى : مرحبا بك .

وقلت له : إن لنا عتابا عليك .

فسألنى : فيم العتاب ؟

فقلت له : ما هى حكاية رمضان ولى هاتها ياساقى؟

فضحك كثيرا ، وقال : ألستم حافظين للقرآن الكريم ؟

فقلنا : بالطبع نحفظه

فقال : ألا تعرفون الآية التى تقول : ﴿ **ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لايفعلون** ﴾ (الشعراء : ٢٢٥ ، ٢٢٦)، وكان ردا أفحمنا . وبعدها بستة أشهر ، مات رحمه الله .

مولد العذراء .. والوشم !

فى هذه الحلقة من مذكرات إمام الدعاة ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، يعود إلى الاحتفالات والتقاليد الشعبية القديمة ، التى كانت تموج بها حياة القرية المصرية ، والتى نشأ الشيخ الشعراوى مع أقرانه فى أحضانها . وتركت بصمات على سيرهم الذاتية جميعهم .

يقول فضيلته :

من هذا الزمن ، أذكر أن من أهم الاحتفالات الدينية ، التى كانت تجمع آباء وأبناء قريتنا دقادوس « مولد العذراء » ، الذى كان يقام فى الأسبوع الثالث من أغسطس . . وكان يقال إنها مرت بالمسيح فى قريتنا ، فأقيمت لها كنيسة عندنا . . وكنا نعتاد فى الاحتفال بهذا المولد أن تأتى إليه كل الطوائف . . لأنه كان من الموالد الكبيرة جدا .

وكان من بين الذين يحضرون ، هؤلاء الذين يدقون الوشم . . وسبب هذا أن النيل فى بلدنا كان واسعا ، ويغرق فيه أناس كثيرون . . فوجدوا أن أنسب وسيلة لمعرفة الغرقى ، أن يدقوا وشما على أيديهم . . وكان « مولد العذراء » أفضل وقت لدق الوشم ، لأن أعدادا هائلة من أبناء دقادوس والقرى المجاورة كانت تتجمع فيه .

وحدث أن ذهبت مع أصدقائى من شباب القرية إلى المولد ، فوجدنا الرجل الذى يدق الوشم تحت الجميزة يخيرنا بين ما نريد دقه بالوشم . . صورة بنت حلوة ، وحاجات كثيرة غير ذلك . . والتففنا حول رجل يدق الوشم بقرش . . وكان فى صحبتى اثنان من أصدقائى ، دق لهما الوشم . . ثم جاء دورى لكى أدق صورة طيور .

ففوجئت بيد تشدنى فجأة ، وكان والدى . وكنت على وشك دق الوشم . . ضربنى وصحبنى إلى البيت . . وقال لى : لا تقدم يا بنى على شىء إلا بعد أن تشاور من يحبك . . والذين معك عيال مثلك .

وسألنى : هل ستدرس فى الأزهر ، وتحفظ القرآن ويبقى لك طيرتين هنا ؟

وبعد أن كبرت وأصبحت عالما . . كان يذكرنى ، ويقول لى معاتبا : تصور أن تكون عالما أزهريا ، كما أنت الآن ، وعلى جانبى جبينك طيرتين هنا ؟

ووقتها ، رأيت غيرى ممن دقوا الوشم ، وأرادوا إزالته بعد أن كبروا ، ولكن ذلك كان مستحيلا إلا باستخدام الأزميل . فقلت لنفسى : ياسلام على الأقدار . . لو لم يحضر والدى ، وأنا على وشك دق الوشم . . لكنت منهم .

ومن يومها ، ترسخ إيمانى بألا يناقش العبد قدره ، فقد يراه ضارا به ، أو يمنع عنه شيئا طيبا ، كما كنت أرى فى صغرى وقت أن جاء أبى إلىّ تحت الجميزة على غير موعد . . بينما كان القدر يخبئ لى ما هو أفضل ألف مرة . بأن ينقذنى فى كبرى من وصمة الوشم .

وأيضا ، كان لأبى كل الفضل فيما خرجت به من دروس فى أحداث عديدة تالية .

فبعد أن تعلمت القراءة على يد العريف الذى كان يقرأ ونحن نقرأ وراءه . .

جاء دور الكتابة . . فكان يعلمنا الكتابة على ألواح صفيح . . ثم يطلب منا أن نحفظ ما كتبناه . . وفى هذه الأثناء ، جاء إلى مسجدنا شيخ من بلبيس إماما وخطيبا للمسجد . . فأسكنه أبى فى غرفتين ببيتنا . . وكان يسهر مع أهالى القرية ليلا ، ويترك بيته . . وكان أبى يلزمنى بأن أبقى فى بيتنا إلى أن يعود الشيخ . . ويراجع ما حفظته .

ولما وجد الشيخ أننى أجتهد فى الحفظ ، قال لى : عظيم . . سوف أجعل والدك يعد لك لوحا ثانيا للبيت ، وتكتب فيه كل يوم حاجة حلوة كده .

وأصبح عندى لوحان : لوح للكتّاب ، ولوح لسيدنا الشيخ . . وظللت لفترة طويلة أحفظ من هنا ، وأحفظ من هنا وعندما أجلس فى أى مكان وأعيد تسميع ما حفظته ، يدهش الحاضرون ، ويقولون : من أين أتيت بهذا ؟! إنه لا يعطى فى الكتّاب .

فأقول لهم : هذا من عند شيخ المسجد الذى يسكن عندنا .

وهذه الزيادة فى حصيلة ما أحفظه ، أعطتنى تميزا بين إخوانى . وقد حببنى هذا فى الحرص على التميز ، فكنت أنا الذى أسأل الشيخ أن يعطينى واجبا إضافيا لأكتبه وأحفظه ، إن نسى ذلك .

وكان أبى يسعد كثيرا بهذا ، ويفاخر به . فكان عندما يأتى إلينا جمع من أصدقائه ، ينادى علىّ ويقول لىَ : قل يا بنى لأعمامك حفظت إيه وإيه .

فأكرر على أسماعهم ما أحفظه . . وهم يطلبون منى التكرار لاستحسانهم ما أنطق به . . وأنا أعيد وأكرر . . وهذا التصرف من والدى ، الذى كان يفاخر بى عن ثقة واعتزاز بابنه . . كان يمنحنى أكبر الدفعات لكى أضاعف من التحصيل .

ويا ليت الآباء يشجعون أبناءهم ، على نحو ما فعل أبى ، ليصبوا منهم أنجح الأبناء وأكثرهم تميزا وتفوقا .

وفى هذه الأثناء أعلنوا فى القرية عن إنشاء مدرسة أولية . . وأصبحت موزعا بين المدرسة وبين الكتّاب الذى يحرص عليه أبى ، وبين الغيط الذى أحبه كثيرا ولا أريد أن أفارقه ، ولا يغيب عن بالى . . لأننى كنت أحب أن أركب المحراث والنورج وغيرهما . . وكان أبى يتفنن فى إبعادى عن الحقل ، لكى أتفرغ للعلم .

ووجد أبى فى المدرسة ما يخدم غرضه . . فالمدرسة غير الكتّاب . . فبعد سيدنا والعريف . . أصبح هناك الناظر ، وسيدنا الشيخ أحمد ، وسيدنا الشيخ محمد أبو عمارة ، وسيدنا الشيخ حسن زغلول . . وكل مدرس له فصل ونظام مدرسى .

هذا كله أخذ من وقت الكتّاب . . ولكن لحرص أبى عليه ، جعله ما بين المغرب والعشاء . . لأنه كان مصمما على انتظامى به . . لكن صديقا لوالدى كان اسمه الحاج متولى على اسم أبى قال له : هذا إرهاق للولد . . مدرسة بالنهار . . وكتّاب بالليل ؟! الولد سيرسب ، خفف المسألة شوية .

فتهاون أبى بعض الشيء . . واستبدل الكتاب بالشيخ عبد اللطيف جودة ، الذى اتفق معه على أن يمر على دارنا وقت وجودى بها ، ويتكلم معى ويعطينى ويحفظنى ما يشاء . وكان الشيخ ليس له إلا فى القرآن . . وكان يستعين على مطالب الحياة بأن يجلس وقت فراغه يفتل أحبالا ، ويعد خوصا ، ويبيعه للناس . . بينما كان شقيقه الشيخ كفافى لا يحفظ القرآن ، ولكن له فى العلم . . فكان هو الآخر يدرس لى الفقه .

وأبى يتركنى للاثنين ، فأنال منهما العلم الوفير . . من هذا القرآن الكريم . . ومن شقيقه الفقه الحنيف ودروسا عظيمة جدا .

وكان الشيخ كفافى ، قد حصّل علمه الوفير من جلسته فى دكان صغير يبيع فيه المضغ . . ويلتقى مع الكبار والعلماء بالقرية الذين يمرون عليه يوميا ، ويتحدثون معه ، ويشترى كل منهم لفة مضغ بقرش . وكان كل رأسماله ريالا يشترى به كل يوم دخانا ويدقه على يده ، ويعد منه عشرين أو أربعين ورقة مضغ . . ويفرغ من بيعها على الظهر ، ثم يذهب إلى الصلاة . . وبعدها يحضرون له الأكل ، ونحن نشتهى أكله ، لأن زوجته كانت تحمله إليه على صينية صفراء ، ومنظره جذاب ، إلى جانب القلة التى تفتح النفس .

هؤلاء جميعا أعطونى صلة قوية جدا بالله من اقترابى منهم ومعايشتى لهم .

وهكذا ، كانت حياة القرية نبعا للإيمان ، وترسيخا للعقيدة ، ومنارا للسلوك القويم والعلم والتحصيل فى أمور الدين .

ومن حياة القرية تعلمت كذلك درسا لا أنساه من وفاء النيل .

فقد حدث أن غمر النيل فى الفيضان ذات مّرة كل شىء . وكان الذرة لم يزل نيا . . وفوجئت بالأهالى يركبون قوارب ، ويبحرون فى مجرى النيل ، ويخلصون عيدان الذرة ، والنساء تزغرد . . فدهشت جدا ، وقلت لأبى : معقول النساء تزغرد على المصايب اللى جتنا ؟

فضحك والدى ، وقال لى : بعدين سأشرح لك .

ولما خرجنا من الهيصة دى ، قال لى أبويا : يا بنى النيل بيجيب لنا الخير كله . . نزرع عليه ، ونعيش على الزرع طول السنة . . والذرة النية دى صحيح ما استوتش ، لكن حنبيعه بأكثر من ثمنه لو نشف .

وسألته : وعلشان كده الستات بتزغرد ؟

فقال لى : وكمان علشان أيام فيضان النيل ، البلد لا تطبخ أبدا . . الشبان كلهم يخرجون بمشنات ويذهبون بها للنيل لملئها بالماء ، ويصطادون السمك من هذا الماء . . وكل أكل البلد يبقى سمكا فى سمك . . عايز خير أكثر من كده؟!

الخلاص .. من « مركب النقص »

ويواصل إمام الدعاة ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، مذكراته من عند واقعة تتلوها وقائع أخرى ، خرج منها بدروس ومعان عديدة . . يقول :

أذكر فى أحد أيامى بقريتى دقادوس ، أنْ نفق عجل بقر بسبب أكله برسيما من النوع المسمى « برسيم ربَّة » . ولما أخرجوا الجثة من الحظيرة ، انطلق صراخ النساء ، فدهشت كثيرا لأنَّهن يولولن على حيوان ، وليس على إنسان .

وسألت أبى : لماذا تصرخ النساء ؟!

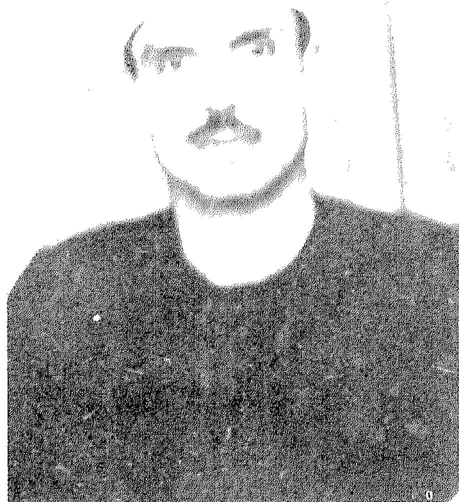
فقال لى : النساء تصرخ وتولول لأن العجل الذى نفق ينفعهن . . يأخذن منه قطعة جبن أو بعض اللبن . . إلى جانب أن العجل يدير الساقية والمحراث ، ويقوم بكل العمل فى الغيط . . فكيف لا يصرخن على فقده ؟!

وفهمت من هذه الواقعة ، أن عملية الخير عندما توزع على الخلق تمنع الحقد من النفوس . . وإذا وقعت للإنسان مصيبة فى شىء ينتفع به الناس لابد أن يحزنوا .

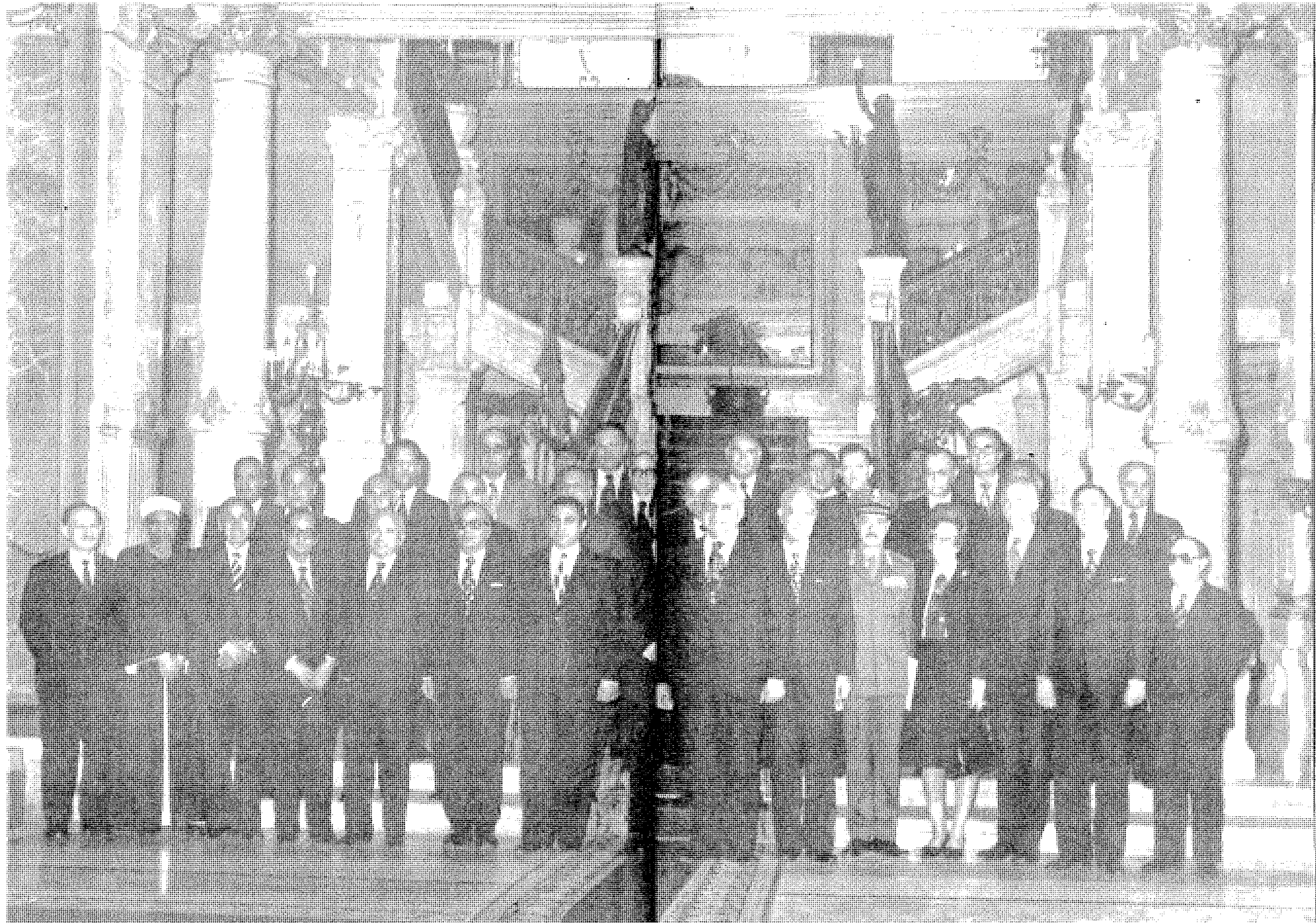
وقلت لنفسى : إذن ، عندما يريد الإنسان أن يحبب نعمة لديه إلى قلوب الناس ، ينبغى أن يجزل العطاء فيها .

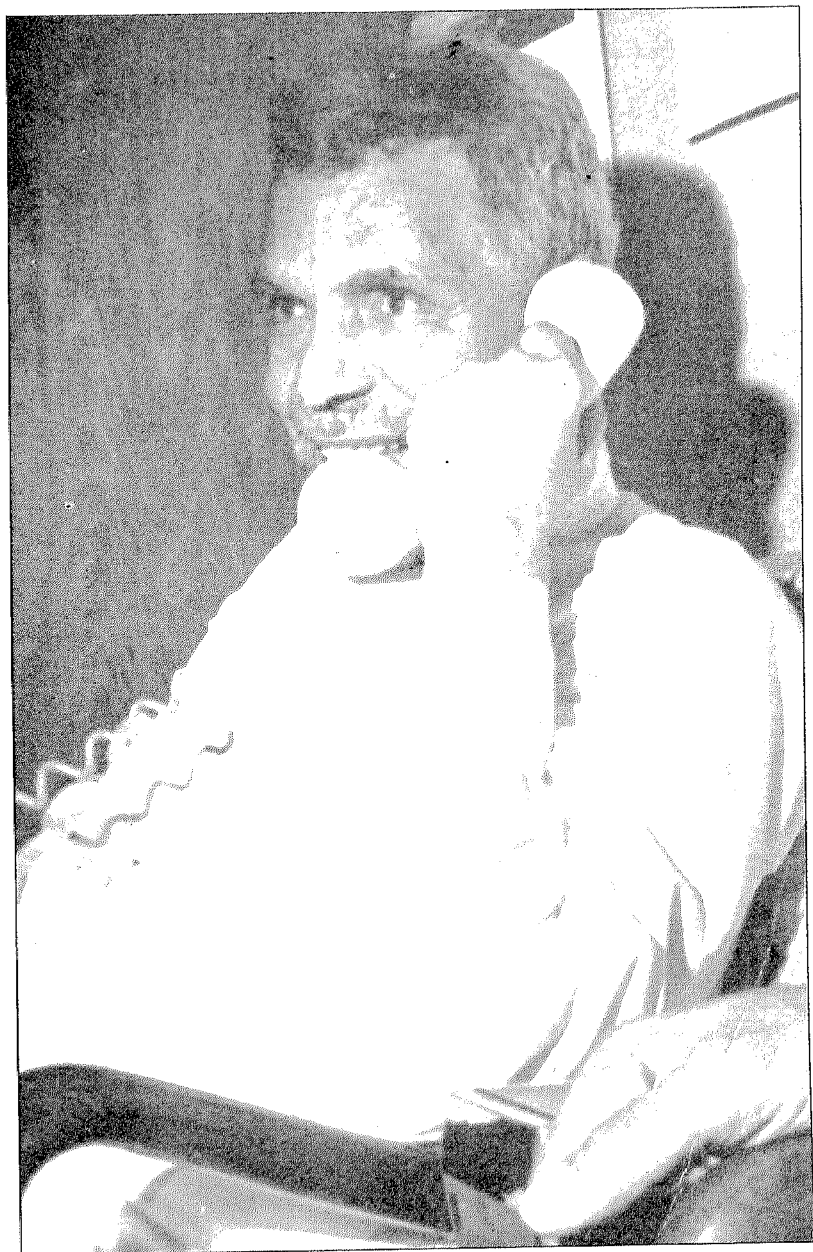
وقتها كنا فى إبان الحركة الوطنية . . وقد أرضعتنا قريتنا حب الوطنية من أيام سعد باشا .



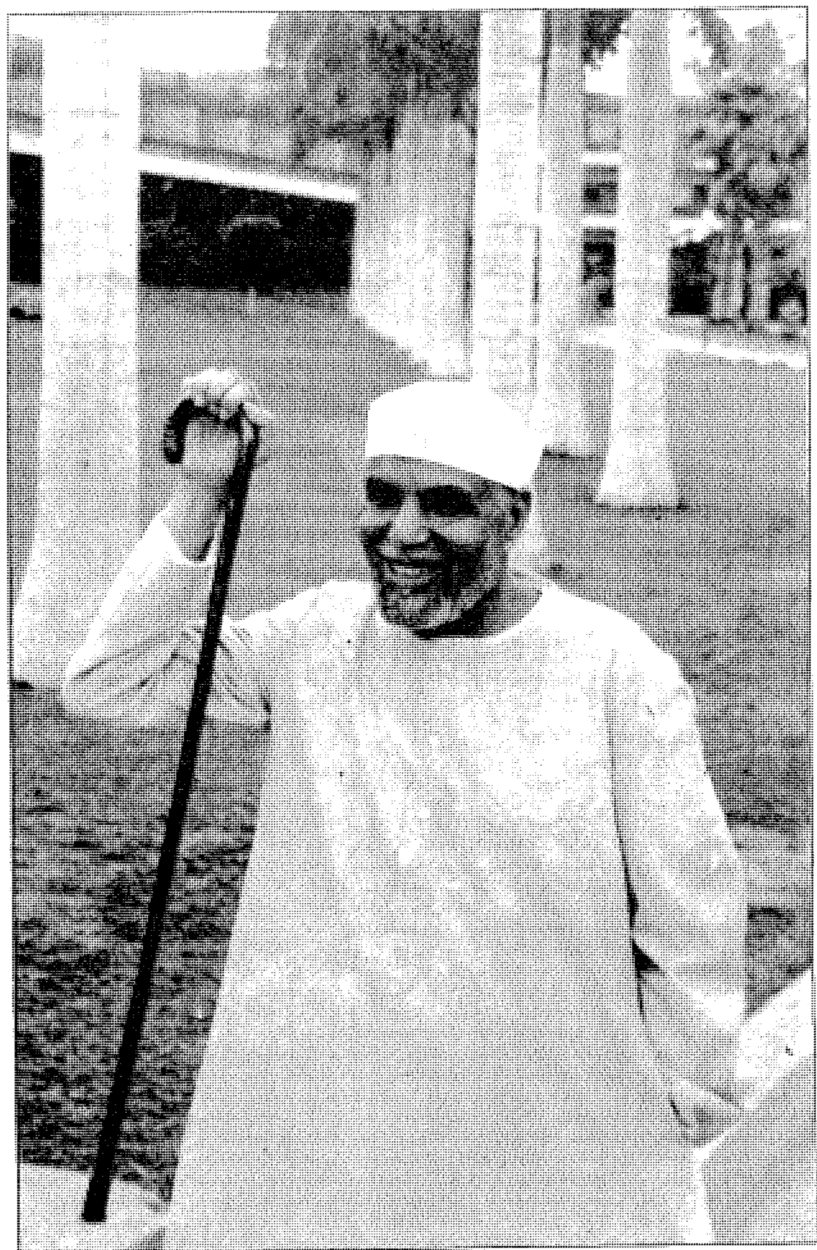












وكان التاريخ قد حدثنا عن أحد قواد عرابى ، وكان يسمى « على خنفس » من أبناء دقادوس . . وذكر التاريخ أنه كان من أبناء دقادوس ، وتواطأ مع الإنجليز ، فأصبحت سبة فى جبين القرية كلها . . وأصبحنا نخجل جميعا من هذه الذكرى السيئة . . ويعايرنا بها أهالى القرى المجاورة بأن دقادوس هى التى جلبت لهم العار . فنشأت أسرة خنفس متعصبة جدا للسياسة لكى تنسى هذه الواقعة . . وانخرطت بشدة مع أهالى دقادوس فى الحركة الوطنية، لكى تمحو العار .

وأخذت من هذا قضية مؤادها أن الانسان عندما يكون مصابا بنقيصة لصقت به لا يصح أن يستسلم لها ، بل يحاول أن يوجد لنفسه مجالا ينبغ فيه ، لكى يحجب نقيصته . وعرفنا بعدها فى علم النفس « مركب النقص » ، ويقضى بأن الإنسان عندما يرى نفسه ناقصا فى شيء يحاول أن يكمل ذاته فى شيء أخر لكى يرد عنه الاستهزاء . . ويتخلص من « مركب النقص » .

وبقيت هذه المسألة معنا إلى أن مات سعد زغلول فى سنة ١٩٢٧ ، وكانت نكبة وطنية كبرى ، لأنه كان الزعيم المتفق عليه الذى قاد ثورة ١٩١٩ ، وكان يتميز بأنه المكتوب له القبول عند الشعب فى نضاله ضد الإنجليز والسراى . . لدرجة أن الناس كانت تردد خرافات عن بطولة سعد إلى حد أن الفلاح الأمى كان يلتقط أية ورقة بها كتابة ، ويقول : دا اسم سعد ، وأكثر من هذا كان الفلاحون البسطاء يعتقدون أن العجل لما ينعر يبقى بيقول يحيا سعد .

ولهذا ، لما مات الزعيم ، ثارت ضجة هائلة . وكان الشيخ مصطفى البياضى الذى سبق أن تحدثت عن حبه للشعر يحضر إلينا المرثيات التى قيلت فى سعد زغلول ونلتف حوله ويكرر قراءتها لنا . . ووقتها كان شوقى موجودا وقال : « زورقا فى الدمع يطفو أبدا » . أى أنه شبه نعش سعد بزورق يبحر فى بحر الدموع طافيا فوقه .

ومرت ثلاثة أشهر بعد ذلك ، تعاقبت فيها المرثيات . . وكنا نحرص على قراءة كل مرثية . . وهذا كون لدينا حصيلة لغوية عظيمة . . كان الفضل فيها للأداء الجيد فى قراءة الشعر ، الذى اشتهر به الشيخ مصطفى البياضى برغم أنه كان فلاحا ، ولم يذهب لمدرسة ولا لكتّاب . . وهذا يؤكد أن الثقافة والمهارات لا يكتسبها الإنسان بالتعلم فقط فى معاهد العلم ، وإنما يمكن أن ينبغ فيها ويتفوق بجهده الذاتى فى التحصيل . . مثلما فعل الشيخ البياضى .

وكانت قريتنا تهتم أقصى اهتمام بالاحتفال بكل مناسبة . . المولد النبوى . . الإسراء والمعراج . . ذكرى سعد . . وهذا شجعنا أنا على الخطابة ، ومواجهة الناس ، وفجر عندنا مواهب كثيرة .

فعندما جاءت حكاية كوبرى عباس ، ومنعت الحكومة حفل تأبين ضحايا اليوم المشئوم ، وأقمنا حفلا أخذت أنا أكبر نصيب من الوقت فى الخطابة ، ولم يتحدث غيرى سوى محمود نور الدين رئيس الوفد ، الذى ألقى كلمة نشرتها الجرائد فى اليوم التالى .

ومن بعدها ، التفتت إلينا الحكومة ، وقالت إننا الذين شكلنا لجنة وطنية ونقف وراء كل التظاهرات والمشاغبات . . إلى حد أنه حدث أن عقد اجتماع فى المعهد ذات يوم ، وأردنا أنا وأقرانى ، أن نذهب إليه ونخطب فيه . . فوجدنا أنهم أغلقوا الباب بالجنازير . . فسألنى صديقى محمد شفيق محروس : كيف نحتال على الموقف ، وندخل الحفل لنخطب ؟

فقلت له : احضروا لى عجلة وطاولة ، وضعوا عليها عشرين رغيفا ، وسوف أتصرف .

وأحضرت أنا طاقية ، ووضعت طاولة الخبز على رأسى ، وأمسكت جادون

العجلة بيد واحدة كما يفعل موزعو الخبز . ودخلت المعهد بهذه الصفة . وفعلا تمكنا من الوصول للحفل بهذه الحيلة ، وألقينا ما نشاء من خطب .

وفى حفل آخر لاحق ، أقيم أيضا فى المعهد ، قال لى صديقى محمد شفيق : سوف نحضر لك هذه المرة بورى وعجلة ، كأنك سمكرى ومطلوب للمعهد لإصلاح شىء .

ونجحنا فى ذلك ، ولم يتمكنوا من اعتقالى ، بينما قبض على بقية زملائى الـ ١٣ ، فذهبت أنا وسلمت نفسى للمأمور فى جريمة رأى ، وليس فى جريمة مخلة بالشرف . . وجاء حكم القاضى فى ظاهره القسوة وفى باطنه الرحمة . . وكان يريد أن يحقق التوازن بين عواطفه معى . . وبين عقله مع القانون . وفصلت من الأزهر . . ثم عدت إليه بعد أن أحرقت كل هذه القضايا فى ميدان لاظوغلى . . وهكذا ترسخ يقينى بأن كل باطل لابد إلى زوال ، طال أمده أم قصر .

وترسخ أكثر هذا اليقين عندى . . من خلال مشاركتى فى غضبة الأزهر . . وقت أن كان شيخ الأزهر هو الشيخ الأحمدى الظواهرى .

وكان علماء التخصص ، هم الذين يدرسون ثلاث سنوات بعد العالمية ويعينون بخمسة عشر جنيها . . وحدث أن أراد شيخ الأزهر تعيين ١٥ عالما ، فنصحه البعض بأن يعين عددا أكبر ، وليكن ٥٠ عالما ، بمرتب أقل لايزيد على ثلاثة جنيهات شهريا . وقالوا له : إن الذين تخرجوا حديثا ، كانوا إلى عام مضى يعيشون حياة الطلبة بثلاثة جنيهات ، وحتى بجنيه واحد .

وبالفعل ، أخذ باقتراحهم . . ووجد فى ذلك خصومة من أتباع الشيخ المراغى شيخ الأزهر السابق ـ فرصة للتنديد بتصرفه ، ونشروا أن الشيخ الأحمدى الظواهرى وظف العالم بثلاثة جنيهات .

وثارت الضجة ، برغم أن الذين عينوا وافقوا بالفعل على مرتب الثلاثة الجنيهات . . ولكنها أصبحت قضية يذكى نارها خصوم الشيخ الأحمدى . . مما دفعنا إلى القيام بثورة نطالب فيها بضرورة خروج الشيخ الأحمدى ، الذى كان الملك متمسكا به .

ولجأنا إلى توسيط بعض السياسيين ليتحقق مطلبنا . ونجحت مساعينا ، وخرج الشيخ الأحمدى من مشيخة الأزهر . . وجاء من بعده الشيخ محمد مصطفى المراغى ، الذى كان شيخا للأزهر من قبل ، وحدث بينه وبين الملك فؤاد خلاف فأقاله . . ومع عودته بفضل غضبتنا ، فرحنا جميعا ، وقلت فى هذه المناسبة قصيدة مشهورة ، كان مطلعها :

الله أكبر هذا أجر من صبروا

وجاهدوا فى سبيل الحق فانتصروا

أيام كنت زعيما للطلبة

ويكمل فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ذكرياته ، عما جرى بعد عودة فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى إلى تولى مشيخة الأزهر ، وهى النقطة التى توقفت عندها مذكرات الشيخ الشعراوى الجمعة قبل الماضية .

يقول إمام الدعاة :

. . وعندما عاد إلينا الشيخ المراغى . . أثبت لنا أنه يحب العلم بحق ، لأنه جعل الملك فاروق يأتى إلى المسجد ، ويجلس مع المصلين ، ويحضر الدرس بين المغرب والعشاء . . ويستمع معنا فى اهتمام مثلنا تماما .

وهذا الموقف ، كان يرفع معنوياتنا كثيرا . وأصبح الشيخ المراغى الذى استطاع أن يحضر الملك إلى المسجد ، وكأنه طالب أزهرى ، أسطورة بالنسبة لنا .

وأذكر أنه كان لى موقف مع فاروق أيام أن كان أميرا للصعيد . . فعندما بعث به والده الملك فؤاد إلى إنجلترا لتكملة تعليمه ، وذهبنا لتوديعه فى ميناء الإسكندرية ، وكان معنا شيخ المعهد ، وجميعنا نضع العمائم فوق رؤوسنا . وعندما صعد فاروق إلى الباخرة ، رفعت يدى وصحت قائلا له : « سر إلى الغرب ، رافقتك السلامة يا أمير الصعيد ، وانعم بالإقامة ، واصحب العزم فى ركابك ، حتى يقضى الله مانويت اعتزامه ، فلك الله حارسا ونصيرا» .

هذه كانت صلتى بفاروق ، قبل أن يتولى العرش . . والحق أنه كان مهذبا ، وعنده قبول . . وعندما تزوج ، احتفل الأزهر بزواجه الأول . . وقال لنا سيدنا الشيخ : يا أولاد عندما يكون ملك فى سن الشباب مثل فاروق ، ويعجل بزواجه ، ويعف نفسه ، فهذا دليل على أنه يريد أن يعيش طاهرا .

واستغرق شيخنا وقتا طويلا فى تحبيب الملك الشاب الذى أصر على الزواج مبكرا إلى نفوسنا . وقد قلت قصيدة فى مناسبة زواجه من الملكة فريدة ، ونلت جائزة عليها . . وكان مطلعها :

صاحب التاج عش مهننا ممجدا

ولواء للشرق فى مصر يعقد

أنت رمز المنى لشعب وفى

واحدا فى الولاء لا يتعدد

وكان وقتها يتمتع بحب الشعب جميعه . . لهذا أقام كل بيت فرحا ابتهاجا بزواجه . . ولم تكن قد خلعت عليه بعد الأوصاف التى بدلت من صورته عند الناس . . لقد ظل طيب السيرة إلى أن أفسده المحيطون به ، الذين زينوا له ارتكاب ما لا يرضاه الشعب عنه ولا يقره .

وعلى ذكر ما كان لى وقتها مع المرحوم الشيخ المراغى ، وحبه الشديد للعلوم . . كان موقفه هذا يضاعف من حبى أيضا للعلوم . . وقد حملنى هذا تبعات كثيرة ، أنا وصديقى المرحوم محمد فهمى عبد اللطيف ، الذى كان يعمل فى جريدة « الأخبار » . . فعندما اشتغلنا بالسياسة ، حرصنا على ألا نكون طلبة خائبين ، مثل الذين يهربون للسياسة . فقلت لزميلى وصديقى : يا محمد . ينبغى ألا نتخلى أبدا عن جدية طلب العلم ، وسوف نتعب بعض الشيء لكننا سنكون ناجحين ، ولا يعايرنا أحد بالفشل فى الدراسة .

واتفق معى صديقى فى ذلك المنهج تماما ، فكان عملنا مزدوجا وطنيا وعلميا . . وكان تقدمى الكبير فى العلم ، وأنا زعيم للطلبة ، يجعل الآخرين يؤيدون زعامتى ، ويقولون إننى استحقها بحق .

وأصبحنا نقضى الليل فى استذكار العلم ، وطوال النهار نرتب للتظاهرات والإضرابات ، وأخذنا بذلك وضعنا عند الطلبة سياسيا ، بما لا ينتقص من وضعنا العلمى . وكان أساتذتنا يضربون بنا المثل ويقولون : هؤلاء الطلبة هم الذين يعرفون الطريق الصحيح .

وكلما ردد الأساتذة ذلك ، زاد التفاف الطلبة حولنا .

وعندما أدخلت العلوم الرياضية فى الدراسة الأزهرية . كان يأتى إلينا طلاب المدارس الثانوية من أجل تنظيم الإضرابات والعمل السياسى ، وعندما ننتهى منها ، نتوجه إلى العلم . . ويستعين بنا طلاب المدارس أيضا فى حل مسائل الجبر والهندسة ومعاملات الكيمياء التى كنا ندرسها مثلهم تماما ، وكانت قدرتنا تثير دهشتهم ، إذ كيف يتقن طلاب الأزهر المسائل الرياضية ومعادلات الكيمياء أكثر من طلاب الثانوى؟!

ولم يكن أحد منهم يعرف السبب وراء ذلك . فقد كنت عندما أذهب إلى قريتى فى الإجازة ، أحرص على الجلوس إلى طلاب الجامعة من أبناء القرية ، وأسألهم عن المحاضرات التى تلقوها فى الرياضيات والكيمياء ، وأطلب منهم المذكرات الخاصة بها ، وأبقيها عندى أياما أعكف فيها على استيعابها ، برغم أنها كانت فى مستوى أعلى كثيرا جدا من مستوى ما ندرسه فى الأزهر .

لذلك ، اعتاد الجميع منى أن أنشر ثقافة لا تتضمنها ثقافة الأزهر ، ويعجبون لذلك . وكان الشيخ محمد العزازى وكثيرون معه من شيوخ القرية

يشيدون دائما بقدرتى الفائقة فى الحفظ ، وذاكرتى التى لا تنسى أية تفاصيل فى أى عام ألممت به حتى الجامعى .

وحدث يوما أن زارنا شخص اسمه محمد إبراهيم ، وكان ثوريا من الذين يسكنون العنابر ، التى كانت معقل الثورة المشتعلة فى بولاق . وقلت له إنه حدث بالأمس موقف مع الدكتور محمد يوسف حجازى ، أستاذ اللغة . فقد ورد فى درسه سيرة حديث نبوى اسمه حديث « أم زرع » . . وهو أطول حديث روى عن رسول الله ﷺ . . وكان الأستاذ يذكر من الحديث كلمة ، وأنا أكمل ما بعدها . . فسألنى : إنت يا واد حافظ الحديث ؟

فقلت له : نعم .

فطلب منى أن أقف وأرويه . . ورويته كاملا وصحيحا . . وكان يحضر هذه الواقعة الدكتور عبد المنعم خفاجى . . فطلب منى الدكتور حجازى أن أقسم بالله العظيم . . فسألته : أقسم على ماذا ؟

فرد قائلا : تقسم على ألا تقرأ هذا الحديث مرة أخرى أمام أحد .

فسألته : لماذا ؟ أنت الذى طلبت منى روايته فرويته .

فرد الدكتور حجازى : لو فعلت هذا سوف يحسدك السامعون .

فتدخل الدكتور خفاجى قائلا : الشيخ الشعراوى سوف ترد عنه نيته الخالصة للعلم أى عين تحسده .

وهنا أذكر أننى سألت الشيخ محمد مصطفى شيخ الحديث بعد حكايتى مع الدكتور حجازى : كيف يكون حديثا عن الرسول وهو ﷺ لم يقل فيه سوى خمس جمل فقط ؟ ورغم هذا يسمونه حديثا ؟ فرد شيخ الحديث قائلا لى : الحديث هو كل ما قاله رسول الله ، وكل ما سمعه وأقره ، وكل ما فعله وإن لم يقله . . فالذى رويته حديث .

وكنا نحرص على تحصيل العلم ليس فقط من مواقع الدراسة . . ولكن نحصله أكثر من مواقع الناس والأحداث فى الحياة العامة ومن المناسبات المختلفة . . وقد ترسخ فى يقينى من وقتها أن « علم المدارس » يمثل فقط ما سوف أؤديه فى الامتحان آخر العام . . وبعدها يتبخر تماما من الذهن . . ولكن العلم الحق الذى يأتى من خارج الدراسة ، ويتم تحصيله طواعية فيستحيل أن ينسى . . لأنه يرتبط بموقف أو مناسبة معينة ، ويأتى فى توقيت يختاره المرء بحريته ، وليس بدافع دق الجرس الذى يدعوك لحضور الدرس ، سواء أردت أو لم ترد وسواء كان يعجبك أو تنفر منه .

ومن هنا ، فإننى أوصى الشباب بالحرص التام على التقاط أى معلومة تطرح أمامه فى أية مناسبة واختزانها فى ذهنه ، أو تسجيلها فى مذكرة . . فإنه من جملة هذا كله وبتتابعه على مر الأيام ، تتكون لدى الإنسان تلقائيا حصيلة ثقافية كبيرة من المعارف المتنوعة ، التى تكون زاده للتفوق والنجاح فى الحياة العملية .

الزواج بعد الابتدائية

ويواصل إمام الدعاة ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، الحديث الذى توقفت عنده مذكراته الجمعة الماضية ، وكان يسجل مدى اهتمامه بتحصيل علوم الدنيا مع علوم الدين معا ، حتى ذاعت شهرته بين طلاب المدارس الثانوية بقدرته الفائقة فى حل معادلات الرياضيات والكيمياء برغم أنه لم يكن يدرس منها كطالب بالأزهر سوى مناهج محدودة لا ترقى إلى مستوى ما يدرسه طلاب الثانوى العام.

يقول فضيلة الشيخ الشعراوى فى مواصلة مذكراته :

وعن أخلاق العلماء ، الذين أردت أن أكون واحدا منهم أقول : إن العلم يكون فى ساعات أعز على العالم من نفسه . . هذا إذا كان إقراره بالفضيلة يزيده ويجعله مأمونا على كل ما نسمعه منه ، وهذا الخلق يشجع من لديه بعض من الموهبة على أن ينميها وينفخ فيها لكى تتأجج ، ولاينفخ فيها لكى تنطفئ . . لأنك تنفخ فى النار لكى تتأجج ، وتنفخ فى شمعة لكى تطفئها . . فالنفخة واحدة فى الحالتين . . ولكن الذى ينفخ فيه هو الذى يختلف . . فهذا خلق العلماء الذين يفتح الله عليهم بتجليات من عنده.

والعالم الحق هو الذى يستقبل القرآن ، كلام الله ، بنفس غير مشغولة بغيره . . وتكون بؤرة شعوره خالية لتلتقط فورا كل معلومة من كتابه الحكيم ،

لا أن تكون مشغولة بأمور أخرى ، ومهما سمعت المعلومة ألف مرة لا تلتقطها . . ولهذا كان إخواننا المكفوفون أقدر دائما على حفظ العلم ، لأن عيونهم لاتكون وقت تلقى المعلومة تقع على مرأى آخر يتحول ببؤرة شعورهم إلى أمور أخرى .

وهذا يوضح لنا حاجة المرء إلى صفاء ذهنه تماما ، وهو يستمع إلى القرآن الكريم أو يقرؤه . . فهذا يجعله يتلقى التكاليف بنفس راضية ويتلقى الأقدار بنفس مطمئنة مسلمة بقضاء الله وقدره . . فعندما تمر به أحداث لايستطيع أن ينهض بأسبابها ، يرجع للرسول الأول ، ويقول : يارب لجأنا إليك فى كل معطوب ينتابنا . ولايسلم نفسه لشهواته فتغلبه على أمره ، لأن الإنسان بطبعه الفطرى لايحب إلا السلامة فقط لنفسه .

وفى مسألة حتمية إخلاء الذهن تماما من أى شواغل أخرى لكى يحسن الإنسان استقبال المعانى فى كتاب الله ، واستيعاب أى معلومات جديدة عن أى مصادر أخرى ، فإن عليه أن يخرج من قلبه النقيض أولا ، لأن الحيز لايمكن أن يستوعب أمرين ، فيجب أن يخرج الأمرين خارج العقل ، ثم تبحث الأمر بعقلك جيدا ، ثم تُدخل ماترتاح إليه .

وحتى الطفل الصغير يدرك أن الحيز لايسع إلا شيئا واحدا . . فعندما يريد أن يجلس إلى جوار أبيه ، يجد شقيقه يحتل المكان الذى يريده ، فإنه لايجلس فوق شقيقه ، ولكن يجذبه بعيدا أولا ، ثم يجلس إلى جوار أبيه ، فإنه يفهم بالفطرة أن ذلك الحيز إلى جوار الأب لايتسع إلا لواحد فقط .

وعلى ذكر العلم . . فقد كان معهد الزقازيق الأزهرى ، الذى أنشأه الملك فؤاد بعد أن أدى الأزهر دوره فى الحركة الوطنية ، وانتظمت فى أروقته ، يعتبر قلعة للعلم ، وكانت حياتنا تمضى بين قريتنا دقادوس وبين الزقازيق . .

وظللنا هكذا إلى أن قضينا تسع سنوات دراسية ، فأصبحت الزقازيق بالنسبة لى هى المدرسة التى حصلت منها كل شىء ، حيث التقيت بجميع إخوانى .

وكان هذا المعهد مشيدا على أساس أن يكون لكل طالب سكن فيه ، ومزود بالمصلى وجميع المرافق العامة ، ومع هذا ، كنا نحرص على أن يكون لنا سكن خارجه ، لأننا كنا نحب السهر والخروج من المدينة .

ومرت علينا خلال سنوات إقامتنا بالغرفة تجارب عديدة . وفى أول تجربة منها ، بعد أن حصلت على الابتدائية الأزهرية ، حدث أن جاء والدى لزيارتنا يوما فى الغرفة بالزقازيق ، فوجد ابنة صاحبة البيت الذى نسكنه تجلس معنا ، وكانت تلميذة صعب عليها حل مسألة رياضية ، فلجأت إلينا وأفهمناها الحل . وكانت على وشك الانصراف .

لكن والدى دخل علينا ، ولا أعرف ماذا دار فى ذهنه ، لأنه بعد أن عدت إلى قريتى فوجئت به يصر على زواجى .

وتغير بناء على ذلك برنامجى الأسبوعى . . أقضى طوال الأسبوع فى الزقازيق ، وأسافر إلى القرية يوم الخميس وأقضى ليلة الجمعة وليلة السبت ، ثم أعود إلى الزقازيق فى قطار الفجر .

وذات مرة تأخر القطار بعض الوقت . . ووصلت إلى المعهد بالزقازيق متأخرا . . فرأيت شيخ المعهد جالسا كعادته على بابه . . وحاولت الإفلات منه ، لكنه كان قد لمحنى فقال لأحد السعاة : هات الواد ده هنا .

وسألنى : لماذا تأخرت ؟ فقلت له إن القطار تأخر نصف ساعة ، وليس أنا .

فسألنى : ولماذا لاتحتاط ، وتأتى مساء الجمعة ، بدلا من فجر السبت؟

فقلت له : أنا متزوج يا سيدى . .

فسألنى : والجواز كويس واللا وحش ؟ فخشيت أن أقول كويس ، فيعتبرنى قليل الأدب . . فقلت له : والله قلة قيمة .

فقال لى : ادخل ، وإياك تتأخر تانى .

وانتهى الموقف عند هذا الحد . . ولكن عندما رآنى صباح اليوم التالى ولم أكن متأخرا ، وجدته ينادينى : ياولد . . قلة قيمة . قلة قيمة .

وكررها أكثر من ثلاث مرات . . وكان ينتهى فى كل مرة بعبارة بس خلاص اسكت . . وسأله المشايخ الذين يدرسون لى : إيه حكاية قلة القيمة دى ؟

فقال : أنا سألت الشعراوى عن الزواج امبارح ، فقال دا قلة قيمة . . وبعد أن عدت لبيتى وجدته قلة قيمة بصحيح .

وهذه المسألة جعلت المشايخ يعتقدون أنى قريب شيخ المعهد ، ويتبادل حديثا شخصيا معى . وكان يسأل الشيخ محمد سرور والشيخ مرسى سليم وغيرهما عنى ، فكانوا يؤكدون أننى طالب مجتهد . . وهذا الوضع جعلنى اكتسب مكانة خاصة عندهم ، وأصبحوا يطلبون منى الخطابة فى كل مناسبة . فاعتدت عليها ، وشجعنى هذا على تشكيل لجنة أدبية كانت تضم الدكتور عبد المنعم خفاجة ، والشيخ حسن جاد ، والأستاذ طاهر أبو فاشا . . وأصبحت لى مكانة متميزة فى مدينة الزقازيق .

وأذكر فى هذه السنوات أن زار الزقازيق رئيس الوزراء ، وكان وقتها إسماعيل صدقى ، وعندما ذهبنا إلى السرادق الكبير لحضور الحفل ، كان

قارئه هو الشيخ على خزيم ، رحمه الله ، وكان يعتبر قمة القارئين فى ذلك الوقت ، وكان أداؤه جميلا ، وله هيبة ورونق . . وعندما بدأ القراءة ، قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وارتبك من وجود إسماعيل صدقى ، فلم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، ودخل مباشرة فى آية ﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل ﴾ (مريم : ٥٤) ، فسر إسماعيل صدقى بهذا . والذين ينافقونه رددوا : أعد . . أعد . . . . ثم انخرط الشيخ فى القراءة .

وفجأة وقف شخص من أتباع رئيس الوزراء وأعطاه ورقة بيضاء طويلة ، وقال له : خذ سيجارة من الباشا .

فلما أخذ الورقة ، فتحها وظهرت منها ورقة مالية من فئة المائة جنيه ، ملفوفة بها . فاندفع الشيخ على خزيم فى تعليق ظريف ، وكان خفيف الدم : « ربنا ما يحرمنا من سجايرك يا باشا » .

فاقترب مستمع من الحاضرين منه ، وقال ردا على تعليقه : بس ما تبقاش كيف .

وهكذا ، كانت حتى الغلطة من القارئ بنسيان قراءة بسم الله الرحمن الرحيم تنطلى على السياسى الكبير ، وترضى غروره ، ويجزل العطاء لها ، لعلها تتكرر ، غير مبال بأن المسألة تتعلق بقراءة لآيات الله .

شر .. جاء بخير !

.. ويواصل إمام الدعاة ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، ذكرياته مع سنوات الدراسة بمعهد الزقازيق الدينى الذى انعقدت له على أيامه ـ بفضل مواقف المعهد الوطنية ـ القيادة السياسية وسط مدارس المنطقة بأكملها . . يقول الشيخ الشعراوى :

وحدث أن حولوا إلى معهدنا الطلاب المنقولين إلى الثانوى من طلاب معهد الزقازيق ، الذى لم يكن يضم سوى المرحلة الابتدائية . . وجاء إلينا وقتها الشيخ حسن جاد والشيخ طاهر أبو فاشا والشيخ لطفى مصطفى . . وكانوا من أبناء بحيرة المنزلة . . وأهالى هذه المنطقة صيادون . . وكانوا يبعثون بصيدهم من السمك يوميا إلى حلقة الزقازيق . . ولكن آباء الأصدقاء الذين وفدوا إلينا من بحيرة المنزلة كانوا يبعثون إلى أبنائهم مع عربة السمك القادمة إلى الزقازيق مقطفين خاصين من السمك لهم . . ولأننا كنا طلبة على قدر حالنا ، ولانريد أن نشترى زيتا لنقلى السمك . . فكان الأيسر علينا أن نقوم بشيه .

وبينما كانت المجموعة غارقة فى تناول سمكة بعد الأخرى بعد قطع الرأس والذيل وتركهما مع البطن الرقيقة التى بها السفا . . كنت أنا أتفرغ لمضغ هذه الأجزاء ، لأن أكلى بسيط ، وهم يتساءلون فى دهشة : هو الشعراوى بيمضغ إيه ؟!

والعجيب أننى من هذا الموقف ، لم أعد استسيغ تناول السمك إلا من الرأس والبطن . . حتى إن الصديق الذى كان يحب أكل الجزل ، كان يسارع للجلوس إلى جانبى ، فأقدم له فى الحال نصيبى من الجزل ، وأكتفى أنا بالرأس والبطن.

فى هذه الأثناء صدر تصريح هور الذى أساء إلى مصر ، عندما ادعى أنها لا استعداد لديها للاستقلال وحماية نفسها . وقد أثار هذا التصريح الحمى الوطنية فى البلاد بأجمعها . . وأدى إلى أن يتناسى الزعماء ما بينهم من خصومات ، ويتحدوا فى موقف واحد شامخ ضد التصريح.

وأذكر فى إبان التظاهرات التى اندلعت فى كل مكان ضد هذا التصريح . . أذكر أننى وقفت يوما فى المعهد ، وتكلمت عن التصريح . . وقلت إنه عندما يتسبب فى اتحاد الأحزاب ، فإنه يكون شرا جاء بخير . . داء ودواء خلق الجبهة ، ووحد الزعماء . . وأثار الشباب ، فكانت الدماء . . وكان الدستور وسيكون الجلاء.

وحدثت وقتها مذبحة كوبرى عباس ، وقلت فى حفل تأبين شهداء المذبحة الخمسة : شباب مات لتحيا أمته . . وقبر لتنشر رايته . . وقدم روحه للحتف والفناء قربانا لحريته . . ومهرا لاستقلال كنانته .

وقد أدى هذا الاحتفال إلى انعقاد راية القيادة السياسية لمعهد الزقازيق وسط مدارس المنطقة . . ومنه تخرج التظاهرات.

وحدث فى ذلك الوقت أن أجروا بين علماء الأزهر مسابقة فى العلوم الحديثة ـ أى الرياضيات من جبر وهندسة ـ ونجح فى المسابقة كثير من العلماء ، فعينوا لتدريس هذه العلوم لنا.

وأذكر أنه كان من بين هؤلاء العلماء سيدنا الشيخ سيد الباز ، والد أسامة والدكتور فاروق الباز . . وكان بحق من العلماء المخلصين الأذكياء . . وحدث أن توقف مرة فى درسه عند الكسور الاعتيادية ، وكنا فى شهر رمضان . . فجاء الشيخ سيد الباز فى اليوم التالى ، وسألنا فى بداية الدرس : ماذا فعلتم بالأمس بعد الإفطار ؟

فقلنا له : صلينا التراويح . .

فسألنا : صليتم التراويح كم ركعة ؟ .

فقلنا له عشرين ركعة .

فسألنا : أول ركعة فى العشرين تكون كم ؟ . . فقلنا له : واحد على عشرين .

فسألنا : والركعة الثانية ؟

قلنا له ٢ على ٢٠ .

فقال لا . . تبقى العشر . . لأنه لا يجوز قراءة الرقم بهذا الشكل . . مادام يمكن اختصاره إلى أقرب صورة . . وأقرب صورة للقراءة فى هذه الحالة تكون العشر .

وظل باستخدام عدد ركعات الصلاة والتراويح يعلمنا الكسور الاعتيادية . . حتى استقرت فى أذهاننا تماما القاعدة التى تقضى بأن نرد كل كسر إلى أقل حد ممكن .

وقد ساعدنى كثيرا على استيعاب الرياضيات صديق عزيز ، كان يجلس إلى جوارى فى التختة ، هو الشيخ حسن جاد ، أطال الله عمره . . كان خطه

من أجمل مايكون . وكان صاحب خلق نسميه خلقا ناعما ، ويتمتع بأدب عال وحياء . فلما وجد أن خطى عاجز ، تطوع من نفسه لإعداد دفتر لى للرياضيات ، مثل دفتره تماما .

وهكذا كان تعامل الأصدقاء فى زمن الصفاء . . خلقا ووفاء . . ومبادرة بتقديم المعاونة والعطاء بغير أن يطلب مادام الصديق فى حاجة إليه . . وهذا الذى عشته واعتدته يجعلنى أسائل نفسى اليوم حينما أصدم فى أحوال الأصدقاء : ما الذى جرى ؟! كيف تبدلت الأحوال وتغيرت النفوس على نحو ما أصبحنا نراه ونحزن له ؟! سبحان الله . . ولادوام إلا لله وحده سبحانه وتعالى .

ومن أصدقاء تلك السنوات الغالية ، العزيزة على النفس ، طاهر أبو فاشا رحمه الله ، ونوادره التى لا تنسى . . ففى أحد الأيام ، وكنا فى أول الشهر ، ذهبنا مع أربعة من أصدقائنا إلى محل شهير لنأكل كبابا وكفتة . . وكان الرطل وقتها بستة قروش ، ومعه العيش والسلاطة وكان الواحد منا يكفيه نصف رطل وكالعادة ، تناول أصدقائى الخمسة طعامهم وخرجوا ، وانتظروا على باب المطعم . . وتركونى أنهى وجبتى على مهل كما اعتدت .

ولما وجدتنى وحيدا ، ولابد أن أدفع أنا الحساب . . أسلمت أمرى لله ، ودفعت المبلغ ، وكان ١٧ قرشا .

ولما خرجت ، سأل طاهر أبو فاشا صحبه الأصدقاء خارج المحل ، كأنه لا يعرف : أمال مين اللى دفع الحساب ؟!

فرد عليه صديق اسمه المهدى مصطفى : الشيخ الشعراوى . . يعنى أنت كنت حتدفع بداله ياأخى ؟!

فرد ضاحكا : بالطبع لا . . لكن أنا عايز بس احترمه .

وبعدها ، أصبحت مثالا . . ففى كل مرة ندخل كأصدقاء مكانا ما نسأله عندما ننصرف : هتدفع الحساب . . ولا حد فينا يدفعه وتحترمه ؟!

وأذكر فى نادرة أخرى من نوادر أبو فاشا . . ماجرى مع بنت كانت تبيع الفجل أمام المعهد ، اسمها ستيتة . . وكان زملاؤنا فى السكن يمدون أيديهم من الشبابيك ويشترون منها . . وفاجأنا طاهر أبو فاشا يوما بقصيدة من النوع الحلمنتيشى فى ستيتة . . كان مطلعها : يا أم سعد مال فجلك غال .

وفى مرة ثالثة ، كنا نجلس على قهوة اسمها قهوة المثلث فى أكبر شارع بالزقازيق : وكان هذا اللقاء بين الأصدقاء يتكرر كل خميس . . نتناول السميط والبيض ونشرب الشاى . . واستلفت نظرنا شخص لم نعتد رؤيته فى المقهى ، يجلس فى حالةعظمة ومنجهة . . فنظر إليه طاهر أبو فاشا والتفت إلينا متسائلا : الراجل ده عامل كده ليه ؟!

فقلنا له : مالنا وماله .

فرد علينا فى حدة : لا . . أنا لازم أهزؤه .

وأسرع وجذب كرسيا وجلس ملاصقا للرجل وهو يقول له : عن إذنك .

فرد الرجل : عن إذنك إيه ؟!

فعاجله أبو فاشا : يعنى عن إذنك حأقعد هنا .

وجلس ، وسأل الرجل : أنت اسمك ايه ؟

فرد الرجل : وأنت مين يعنى ؟!

فقال أبو فاشا : واحد من خلق الله . . مش عاجبك ولا إيه ؟

كان كل همه أن يجر شكل الرجل . . ولما لم يغضب الرجل ، قال له أبو فاشا : صليت على النبى .

فرد الرجل : اللهم صل عليه .

فقال أبو فاشا : بقول لك صليت على اللى قدمه برقابتك ؟! فأدرك الرجل أن أبو فاشا يجره جرا لخناق . . فأخذها من قصيرها وترك المقهى ، ولم يظهر فيه بعد ذلك أبدا . . ومن يومها اعتاد المشايخ مداعبة أبو فاشا فيقولون له كلما التقوا به : صليت على اللى .

مع أساطين الفن الأربعة

ويستعيد إمام الدعاة ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، فى هذه الحلقة من مذكراته نوادر طريفة لأصدقائه لاينساها من أيام دراسته معهم فى معهد الزقازيق الدينى . . تجسد كيف كان فكر الناس عن الحياة التى يعيشها الملك فاروق . . وكيف كانت أحوال الدنيا والمعيشة فى الخمسينيات .

يقول الشيخ الشعراوى :

أذكر أن أعد لنا يوما عم أحمد جاد فى « كانتين » المعهد طبق فول تمام ، و«وضبه » بالزيت والليمون ، ودخل علينا ونحن نتناوله بشهية أحد أصدقائنا ، وهو الشيخ مصطفى سمك . . وكان ضخم الجثة . . وفيه كثير من طبيعة الشراقوة وسألنا : هوه الملك فاروق يا أولاد بيأكل فول زينا ؟

فرد عليه الشيخ عبد المقصود دراس ، وكان يأكل معنا : أمال يا أخى . . دا التابعى بتاع دمياط عمل له قدرة من دهب وسوى له الفول فيها . وأكله فى رمضان .

فعلق الشيخ مصطفى سمك : معقول . . لازم كان عليه لحمة .

ووقتها كان كل طالب منا يحمل معه ، عندما يأتى من بلده إلى الزقازيق ، ما توفر له من الطعام . . فنتلقفه ونأكل معا . . وظللنا على هذا الحال إلى أن

حصلنا على شهادة الكفاءة . . وكانت بعد دراسة سنتين فى الثانوى ، وبعدهما نحصل على التوجيهية ، بعد سنتين أخريين . . ثم نتوجه إلى الكليات فى القاهرة .

وكان بعضنا يكتفى بشهادة الكفاءة ، ويعمل بها مدرسا إلزاميا . . وأنا كنت أفضل ذلك ، وقلت لأبى : أنا نفسى أرجع البلد ، وأتوظف فى المدارس الأولية .

ولكن أبى رفض بشدة . . وسألنى رحمه الله : هوه مدرس الإلزامى مرتبه كام ؟

فقلت له : ثلاثة جنيهات .

فقال لى : اعتبر نفسك موظفا عندى . . وسأعطيك أربعة جنيهات شهريا . . وسوف أمنحك أيضا كل علاوة تتقرر . . ولكن عليك أن تتفرغ أنت للعلم .

فقد كان هذا الأمر يهمه للغاية . . وأكملت طريقى إلى التوجيهية ومعى اثنان فقط من أصدقائى . . فكان علينا أن نجمع صحبة جديدة من الأصدقاء . . وكان من بينهم أحمد عاصم . . وكان من بلد اسمها أبو الشقوق ، التى كانت قرية محمد حسين هيكل صاحب رواية « زينب » التى تعتبر أول رواية نقلت إلى السينما . . ولما أردنا مشاهدتها ، طلبنا من أحمد عاصم أن يكلم مؤلفها ابن بلده ليحصل لنا على ثلاث تذاكر مجانية . . بدلا من أن ندفع فى التذكرة تلاتة تعريفة . . فجاء إلينا بعشر تذاكر .

وهكذا كنا أول من شاهدوا أول فيلم سينمائى مصرى ، هو فيلم زينب . . وسعدنا وقتها بهذا كل السعادة . . وطلبنا من أحمد عاصم أن يبلغ ابن بلده

إعجابنا الشديد بروايته . . فقال لنا إنه ليس فقط بلدياته لكنه ابن خاله . . فشجعنا هذا على أن نطلب منه أن يمدنا بنسخ من كتابه « حياة محمد » . . فأحضر لكل منا نسخة ، واعتدنا أن نعكف بعد كل عشاء على قراءة صفحات منه ، وكان هذا الكتاب من أهم العوامل المؤثرة التى حببت الأدب إلى قلوبنا .

وأصبحنا بهذا أدباء وشعراء وأزهريين . . فكان الأدب يتطلب منا الفن والشعر . . والأزهر يتطلب منا الورع والتقوى . . ومن ثم كان علينا بالضرورة أن نجمع بين الفن والتوقر . . وكان الأمر يشق علينا لأننا نسمع مثلا شعر الغزل . . ولكننا لا نستطيع أن نقول شعرا فى الغزل لأننا أزهريون .

أيضا أسعدنا كثيرا وامتعنا فى ذلك الوقت قراءاتنا لكتاب للمرحوم أحمد شوقى ، كان عنوانه : « أسواق الذهب » . . وكان من النثر الرفيع . . ولما قرأه لنا الدكتور عبد المنعم خفاجة ، وجدناه يتكلم عن الفن كلاما واسعا بعض الشىء . . ويقول : أساطين الفنون أربعة . . وأساطين تعنى أعمدة . . الأول : شاعر صار بيته على ألسنة الناس . . والثانى : مصور نطق زيته . . والثالث : مثّال نطق حجره . . والرابع موسيقى بكى وتره .

فقلت : كلمة النحت والتماثيل لا تناسبنا ، والموسيقى يمكن أن تناسبنا بشرط ألا تكون مهدهدة للعواطف ولا مهيجة للمشاعر .

وقطعنا وقتا فى الأخذ والرد مع بعضنا البعض . . إلى أن توجهنا إلى أستاذ لنا كان اسمه عبد العزيز عبد الحق - رحمة الله عليه - كان يدرس لنا التاريخ . . وطرحنا عليه موضوع حوارنا . . وكان أستاذا بحق ، يعتبر التلاميذ أبناءه . . فقال لنا : لأنكم أزهريون ، ستنظرون إلى الفن على أنه عيب .

فطلب منى المتحاورون أن أبدا وأطرح موضوعا لنحدد موقع الفن منه . .

فاقترحت أن نحدد معنى كلمة فن أولا . . لكيلا نفقد أزهريتنا فى سبيل الشعر .

وأخذنا نبحث عن تعريف كلمة فن . . فوجدنا أن كلمتى فن وفنان مأخوذتان من الحمار الوحشى . . بمعنى أن الفن يجمل كل شىء لكى يروق فى المنظر . . حتى منظر الحمار الوحشى البعيد عن كل جمال . . وانتهينا إلى أن الشعر فى حد ذاته ليس حراما . . لكن المهم فى أى مجال نستخدمه ؟! . . فمثلا ، لا يقال السكين حرام أو حلال . . لأننا لو استخدمنا السكين فى ذبح فرخة تكون حلالا . . وأما إذا جرحنا بها إنسانا تكون حراما . وعلى هذا ، قال لنا الشيخ حسن الإمام : عندما يريد أحد أن يقرض شعرا فى الغزل . . فليكن غزلا شرعيا .

فقلت له : إذن على كل منا أن يكتب شعرا فى الغزل الشرعى ، ويأتى به إلينا غدا . . ورحب الجميع . . وفى اليوم التالى ، اجتمعنا وكنت أول من سألونى : ماذا قلت ؟ . . فقلت لهم :

من لم يحركه الجمال فناقص تكوينه

وسوى خلق الله من يهوى ويأذن دينه

وقد قال رسول الله ﷺ : إن من البيان لسحرا ، فمنه البيان المعبر ، وإذن لا تقول إن الفن سيئ . . إلا إذا نقلنا من جمال إلى قبح .

وقلت يوما لبعضنا : مادمنا أزهريين وشعراء . . فلنحاول أن نمسك بالأشياء التى للشرع فيها رأى وندخلها الأدب . . فبدأنا باختيار آية ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ۞ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ (فصلت : ٣٤ ، ٣٥) ، وكان أن قلت فى هذا المعنى :

يا من تضـــايقـــه الفـــعـــال من التى ومن الـذى
ادفـع فـــديتك بالتى حـــتى ترى فـــإذا الـذى

وحدث أن أعجب بها الأصدقاء أشد الإعجاب . . حتى إن بعضهم كتبها وصورها وقام بتوزيعها على معارفه وأصدقائه .

وبعـدها استحسنا هذه المحـاولات الأدبية . . فكنا فى كل أسبـوع يتناول أحدنا آية ويقـرض شـعـرا فى مـعـانيـهـا . . فكان القـرآن الكريم بالنسبـة لنا ، وسوف يظل لكل أبناء الضاد من الأدباء ، نبعا لا ينضب للوحى الأدبى .

معانى الآيات .. نصوغها بالشعر

.. وفى سياق ما ذكره إمام الدعاة ، فضيلة الشيخ الشعراوى ، فى حلقة الجمعة الماضية التى انتهت برواية تسابق أعضاء جمعية الأدباء فى تحويل معانى الآيات القرآنية إلى قصائد شعر .. كان من بينها ما أعجب بها افقاء الشيخ الشعراوى أشد الإعجاب ، إلى حد طبعها على نفقتهم وتوزيعها .

يقول إمام الدعاة :

ومن أبيات الشعر التى أعتز بها ، ما قلته فى تلك الآونة فى معنى الرزق ورؤية الناس له .. فقد قلت :

تحرى إلى الرزق أسبابه

ولا تشغلن بعدها بالك

فإنك تجهل عنوانه

ورزقك يعرف عنوانك

وعندما سمع سيدنا الشيخ ، الذى كان يدرس لنا التفسير هذه الأبيات ، قال لى : يا ولد هذه لها قصة عندنا فى الأدب .

فسألته : ما هى القصة ؟

فقال : قصة شخص اسمه عروة بن أذينة . . وكان شاعرا بالمدينة ، وضاقت به الحال فتذكر صداقته مع هشام بن عبد الملك . . أيام أن كان أمير المدينة ، قبل أن يصبح الخليفة . . فذهب إلى الشام ليعرض تأزم حالته عليه لعله يجد فرجا لكربه .

ولما وصل إليه ، استأذن على هشام ، ودخل . . فسأله هشام : كيف حالك يا عروة؟

فرد : والله إن الحال قد ضاقت بى .

فقال له هشام : ألست أنت القائل :

لقد علمت وما الإشراق من خلقى

إن الذى هو رزقى سوف يأتينى

واستطرد هشام متسائلا : فما الذى جعلك تأتى إلى الشام ، وتطلب منى .

فأحرج عروة الذى قال لهشام : جزاك الله عنى خيرا يا أمير المؤمنين . . لقد ذكرت منى ناسيا ، ونبهت منى غافلا . . ثم خرج .

حدث بعدها أن غضب هشام من نفسه ، لأنه رد عروة مكسور الخاطر . . وطلب القائم على خزائن بيت المال ، وأعد لعروة هدية كبيرة ، وحملوها على الجمال . . وقام بها حراس ليلحقوا بعروة فى الطريق . . وكلما وصلوا إلى مرحلة ، يقال لهم : كان هنا ومضى .

وتكرر ذلك مع كل المراحل ، إلى أن وصل الحراس إلى المدينة . . فطرق قائد الركب الباب ، وفتح له عروة . . وقال له : أنا رسول أمير المؤمنين هشام .

فرد عروة : وماذا أفعل لرسول أمير المؤمنين ، وقد ردني وفعل بي ما قد عرفتم ؟!

فقال قائد الحراس : تمهل يا أخي . . إن أمير المؤمنين أراد أن يتحفك بهدايا ثمينة ، وخاف أن تخرج وحدك بها . . فتطاردك اللصوص ، فتركك تعود إلى المدينة ، وأرسل إليك الهدايا معنا .

ورد عروة : سوف أقبلها ، ولكن قل لأمير المؤمنين : لقد قلت بيتا ونسيت الآخر .

فسأله قائد الحراس : ما هو ؟ . . فقال عروة :

أسعى له فيعييني تطلبه

ولو قعدت أتاني يعينني

وهذا يدلك ـ فيما يضيفه إمام الدعاة ـ على حرص أساتذتنا على أن ينموا في كل إنسان موهبته ، ويمدوه بوقود التفوق .

وما كنا نستمع مرة إلى تلاوة قرآنية من فقي القرية ، وبلغ في القراءة إلى قصة سيدنا إسماعيل ، ووصل إلى عبارة ﴿ فلما أسلما ﴾ (الصافات : ١٠٣)، . . أي لما أسلما الاثنان إبراهيم وإسماعيل . . تجسد أمامنا حنان الأب . فحينما أمر أن يذبح ابنه لم يأخذه غدرا وذبحه . . وإنما آثر مفاتحته فيما طلب منه ، لكي يشركه في الثواب . . وبعدها ، فلما أسلما قال له ربنا : ارفع يدك وفداه .

هذه الحكاية بقيت في ذهني يومين . . إلى أن وصلت إلى هذه الكلمات التي قلت فيها : سلم لربك حكمه فلحكمة يقضيه حتى تستريح وتغنم . .

وهنا قلت لنفسى : ماذا حدث بعد أن أسلما . . فكانت الإجابة أن أول ولد فديناه . . وبشرناه بإسحق . . ومن بعده يعقوب . . وسوف يصبحان نبيين . .

أقول هنا إن الإنسان عندما يسلم لله يرد المسألة إلى حكمة . ولا تنسبها إلى نفسك ، وإنما قل من الذى فعلها ؟

وضربت مثلا لذلك فيما بعد ، عندما كنت فى الجزائر ، فقلت : هب أن لك ولدا ودخل عليك ووجهه ملطخ بالدماء . . بالطبع سوف يكون أول سؤال توجهه إليه : من الذى فعل بك ذلك ياولدى ؟ فأنت إذن لم ترتب على الحدث حزنا منك عليه ، إلا بعد أن تعرف أولا من الذى ارتكبه . . فإذا قال الولد لك إن عمه هو الذى فعل ذلك . . لابد أن تسأل أخاك : لماذا فعلت ذلك بابنى؟ فربما يقول لك إن الولد كان يجرى وراء سيارة حتى كاد يسقط تحتها وتدهمه .

وهذا يعلمنا أن الفعل لا يكره لذاته ، ولكن لمن فعله . . فإن فعله عدو يكون للأمر موقف آخر ، وإن فعله قريب أو حبيب يختلف الأمر . . وإذن عندما تقع علينا أحداث ومصائب لا دخل لنا فيها . ولا نجد لها أسبابا نفهمها . . لابد أن نقول إن لها حكمة ونتقبلها لكيلا نغضب . . لان الذى أجراها عليك ربك . . وربك حكيم ، وأجرى ما أجراه لحكمة يعلمها هو .

فالإنسان قبل أن يحزن لحدث حل به ، يجب أن يعرف أولا : من الذى فعله ؟ فإذا عرفه ، فقد يعتبر الحدث خيرا بعد أن كان يراه مصيبة .

وكان الكفار يفرحون عندما تصيب المسلمين مصيبة . . فنزل قوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ (التوبة : ٥١) . وليس علينا ، لأن ما

كتب جاء لصالحنا . . وإذن فاعل الفعل هو الذى يحدد إن كنت أغضبت أم لا .

ومن أعز ما أتذكره من هذه السنوات الغالية ، ما كان سائدا من تشجيع الأساتذة لأبنائهم الطلاب ، إلى حد أن كان يقال فى ذلك الزمن إن فلانا تخرّج على فلان وفلان .

وكنا أيام دراستنا بالأزهر ، يذهب الواحد منا إلى حلقة من حلقات صحن الأزهر ، ثم يتركها إلى حلقة أخرى . . والشيخ الذى يشده بحديثه يكثر التردد عليه ، ولذلك ، كان ينتشر بيننا المبدأ الذى دعا إليه طه حسين : « اقرأ ما شئت على من شئت » . . فلا يحدد شيخا ولا يحدد موضوعا . . فالذى يشدنى فى المنطق أذهب إليه . . والذى يشدنى فى التفسير أنضم إلى حلقته .

ولما تعدد المشايخ ، أصبح الواحد منا مذبذبا بين هذا وذاك . . ولكننا خرجنا بعقيدة مؤداها أن الطالب لا يزهد فى شيخه إلا إذا كان عقله غير موصول بما يتكلم فيه الشيخ . . أى أن يكون الطالب شاردا بذهنه . . فتكون عظمة المعلم أو الشيخ إذن أن يجعل تلميذه مركز الذهن دائما معه ، لأنه لو شرد فى فقرة ، فإنه يصعب عليه إدراك معنى الفقرة التالية الذى يترتب على ما سبقها .

بعكس الحال إذا كانت سلسلة الاستماع والفهم موصولة .

وأضرب هنا مثالا بما كانت ترويه لنا الجدات من حكايات وقصص تستخدم فيها وسائل التشويق والاستحواذ على الذهن حتى نواصل متابعتها . . وكانت الجدة بهذا وهى أمية تدرك بالسليقة مقومات المعلم الناجح .

ليلة الإسراء والمعراج

من أعز ذكرياته قصيدة « الباكورة » عن الإسراء والمعراج التى نظمها الشيخ الشعراوى فى عام ١٩٢٨ وهو طالب بالأزهر ، ولم يطبعها إلا فى عام ١٩٣٢ . وقد التقت فيها ، كما يقول إمام الدعاة ، أولياته بأخرياته حين شرع فى تقديم خواطره مع القرآن الكريم بالتليفزيون عام ١٩٧٢ ، مبتدئا بتفسير الإسراء والمعراج . . وهذه أبيات من قصيدته .

يالَيْلة « المعْراجِ » و « الإسْراءِ »

وحْى الجلال وفتْنة الشعَراءِ

الدّهْرُ أجْمَعَ أنتْ سرّ نوَاته

وبما أتاك اللّهُ ذاتُ رُواء

فَلَكَ العُلا دارتْ عليْه شمسهُ

والشّمْس واحدة من الإنشاء

منْ ذا الذى يحْظَى بما استعْصى عَلَى

« موسى وعيسى » صاحب الإحْياء

يَاحَبّذَا « إسراؤه» و « عُرُوجُهُ »
منْ « مكة » ! « البيْت » إلى « الزّرقاء»

اشتاقَ « طه » « المصطفى » لمليكه
يا حبّذا المشْتاق للعلْياء

قدْ قَال يا « جبْريلُ » بلّغْ خَالقى
أنّى أودّ بأنْ أكُون الرّائى

أرْجو المثُول أمامهُ حتّى أرَى
ذاتا فهيَّئى تفزْبشائى

ذَهَبَ « الأمين » إلى الإله مُخْبراً
واللّه يعْلم كلّ شىء ناء

قال الإلهُ الضّيْف عندى « أحْمدُ »
أحْضرْ أيا « جبريلُ» تى الأضْواء

الأرْضُ شرفها ضياءُ « مُحَمّد »
فأمثلْ به حتى يزُور سمائى

ذَهَبَ « الأمينُ وميكئيلُ » صُحْبة
أخذوا « رسوْل اللّه » للإسْراء

قدْ يَمّمَا بثْراء « لزمْزم» نابعاً
ليطهّرا قلْبا له بالماء

ذهبــا فـــشـــقـــاً صـــدْره بمُروءةٍ
غـســـلاه غــسلك أنْظف الأشـيْــاء
مـــلآه إيمانا وعلْمـــاً راســـخــاً
قَــدْ أثْلجــاه بحكْمـــة الْحُكمـــاء
خـــلاه تواً « كـــالنطاسى » بارعـــاً
لكْنْ همـــا « نطْس » بغْـــيـــر دواء
ختَـمــاهُ خـتْـمــا للنّبــوّة مـحكمــاً
وأتى « الْبــراقُ » « لأحْــمــد » بولاء
لا بالْمذكّـــر والْمــؤنّث مَـــســرْج
خــيــر الْمطايا مــرْكب السّــعــداء
هُو جـــامع منْ كلّ حــسْن خلْقـــةً
مُــتــوسّط فى الْخـــفْض والإعــلاء
رجْــــلاه بلْ ويداه عنْد ضـــرُورةٍ
قـصــرتْ وطالتْ سـاقُـهـا برضــاءِ
وخطاه فى قطْع الْفــــلاة كلحْظة
ولحــاظه اسْــتــوْلتْ على أرْجــاء
ركب الرســول عليْــه جلّ مـقــامــه
ومـشى الْبــراقُ بمشْـيــةِ الْخـيَــلاء

ساروا إلى الأقْصى يُنارُ بركْبهمْ
كالشّمْس فوْق الْقبّة الزّرْقاء
قطعوا الْفيا فى والقفار كطرْفة
للْعيْن أو كإشارة الإيماء
رأوْا الْعجائب فى الطريق بأسْرها
صلّوا سويّاً عنْد « طُور سَيَناء »

* * *

« المسْجد الأقصى » رأوْا فتهلّلُواْ
نزل النّبى ببابه بمضاء
أخذ الْبراق الْوحْى جبْريل العُلا
لوكائه فى الصّخرة الصماء
دخل « النّبى الْبيْت » بدْرا ساطعاً
فأعارهُ نُورا يراهُ النّائى
صلّى الملائك خلْف أحْمَد هم علَى
دين «الخليل» وأعْلنُوا بدُعاء
رسلا يلى ضريا سقوْه ظامئاً
ورَوَوه منْ هَذَا بديل الماء

وقـدْ انْتـهى الإسُـراء مـقْطُوعـاً به

وعُـرُوجُـهُ بالجْـسم ذاك الْجـائى

جـاءُوا بمرْقـاة منْ الذّهـب الْذى

هو عـسْـجـد يدْمى عـيـون الرّائى

صـعـد « النبى » إلى السَـمـاء مكَبـراً

« جـبـريل » « مـيكائل » كـالعُـشـراء

سـاروا بقـدْرته كـأن طريقـهُمْ

جـسْـر عـريض مُـريم بفـضـاء

لما أتوا « أوْلى » السـمـاوات العُـلا

قـرع « الأمين » لبـابهَـا بمَضـاء

* * *

قـال « المْوكَل » بالسـمـاء مـخـاطبـاً

« جـبْـريل » هذا قـائد الأضْـواء

منْ معْك يا « جبْريل» ؟ قال « محمّد »

نور الْهـدايـة صـادقُ الأنبـاء

سـأل « الموكَل» هلْ حظى برسـالة

فـأجـابهُ : مـهًـدى إلى الغـبـراء

فَـتَحَ « الْموكل بالسَـمـا » فـأذا به

أصْل الخليـقـة دوْحـة الآباء

نوران قـــدْ لمعـــا على أرْجـــائهـــا

وتَرى « الّســـمـــاء» تزيَنت ببـــهـــاء

وأراهُ « آدم » كلَ شىء فـــوقـــهـــا

مـــتـــهلّلا بفـــضـــيلة شـــمّـــاء

صـــعـــد « النَبىّ» لما يليـــهـــا شـــاكـــراً

لـلّـه من نـعم وخـــــيــــــر عـطـاء

جـبْــريل يقْــرعُ بَابَهَـــا مـــسْــتـــأذنا

ردّ الموكّـل ســــــائـلاّ بـوفــــــاء

منْ مــعك يا جـبــريل ؟ قــال مُـحـمـد

خـيــر البـريَة « أحْـمـد» الْوجـهــاء

فــتح السّــمــاء مــرْحــبــا « بمحّـمـد»

عـيسى : كـذا : يحْـيى : من الشّـهـداء

قـــدْ قـــابلاه بكل بشْـــر واضح

«يامـــرْحـــبـــا» بالْقـــادم الـوضّـــاء

دعـــوا له بالخـــيْـــر خـــالص دعـــوة

وكـــــذا يكون الحـبّ للنّبـــــهـــــاء

صـــعـــد « النّبى» مع الأمين إلى العـــلا

وصــــلا « الثـــالثَـــة» بغـــيْـــر غَنَاء

جـبـريل يقْـرع بابهـا لولوجه
مـرحـاً فَـقَـالَ « مـوكّل» بسَـمَـاء

من معْك يا « جبريل » ؟ قال « مُحمد »
قطْب الوجُـود و « أحـمْـد » النبـلاء

فـتح السمـاء مـرحـبا « بمحـمـد »
فـإذا « بيـوسُف » فـاتنِ الحـسُناء

حـيـاه خـيـر تحـيـة ممزوجـة
حُـبـاء وذلـك أعظـم الآلاء

وصـلا « لرابعـة » السمـوات العـلا
« جـبْـريلُ » يقْـرعُـهـا بخْـيـر نداء

من معْك يا « جبْريل » ؟ قَال : « مُحمد »
ضـيْـفُ العُـلا ومُنـوّر الأرْجـاء

فـتح « الموكّل» بالسّـمـا . فـإذا به
« إدْريسُ » قـوْم صـادقُ الأنبـاء

فـدعـا له بالخـيْـر حـتى المُرتقى
صـعـدا « لخـامـسـة » بغـيـر ثناء

قـرع « الأمين » لبـابهـا مـسْـتـأذنا
قـال « المُوكَل » من ببـاب سـمـائى ؟

فـأجـابه : « جـبـريل » فـافْـتحْ بـابهـا

ســـأل « الموكـل » قـــائد البـــلاء

من مـعْك يا « جبريل» ؟ قـال « مُحـمد»

مــســتـــأصل الأشـــراك بالأبراء

فــتح « الموكّل» بالسّــمــا فــإذا به

« ذو اللحـــيـــة البـــيـــضــاء

صـعـدا « لسـادسـة » السّـمـوات العـلا

ومـــحـــمـــد هو أفـــضل النزلاء

قــرع « الأمينُ » لبـابهـا مُـسْـتـأذنا

ســأل الذى فـيـهـا بكل حـيـاء

منْ معْك يا « جبْريل» ؟ قال : « مُحمد»

هادى البـــرايا أول الشــفــعـــاء

فـــتح الّذين ببـــابهـــا وتهلّلوا

وإذا بحـــفـل كـــان كـــالجـــمـــاء

إذا « بمُوسى » بيْنهـم مـــســتـــهـلّل

و « مـحّـمـد » كـالزهرة الفـيـحـاء

صـعـدا « لسـابعـة » السّـمـوات العـلا

حـــتىّ أتوْها جـــيْـــئـــة الأنواء

قــرع « الأمينُ » لبــابهــا مُــســتــأذنا

سـأل الذّى فــيــهــا بكلّ حــيــاء

منْ معْك يا « جبريل » ؟ قـال : محـمّد

تاج الفــخــار و«مــصطفى » الأسْــمــاء

من معك يا « جبريل » ؟ قال « محمد »

فى حديث الذكريات عن قصيدته « ليلة الإسراء والمعراج » التى نظمها فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى عام ١٩٢٨ ، وهو لم يزل تلميذا بالإعدادية الأزهرية ، ولم تتسع الصفحة لنشر سوى الجزء الأول منها الجمعة الماضية لامتدادها إلى ٢٢٦ بيتا ، يبدى إمام الدعاة اعتزازه الكبير بالعبارة الرقيقة التى قدم بها رفيق عمره الكاتب محمد فهمى عبد اللطيف القصيدة إلى القراء أول مرة قائلا : إنها قصيدة طويلة النفس ، لا يقدر عليها سوى كبار الشعراء من أمثال بشار بن برد ومهيار الدهلمى .

والجزء الثانى من قصيدة « الباكورة » فى الإسراء والمعراج الذى تنشره صفحة اليوم . . كانت آخر الأبيات التى سبقته فى نهاية الجزء الأول الجمعة الماضية تقول :

قرع الأمين لبابها مستأذنا
سأل الذى فيها بكل حياء
من معك يا « جبريل » قال « محمد »
تاج الفخار ومصطفى الأسماء

ويستطرد إمام الدعـاة . . الشيخ الذى بزغت ولمعت شاعريته مبكرا . . منشدا فى الجزء الثانى من قصيدته « الإسراء والمعراج » :

فـتح « المُوكلُ » مُـسْـرعـا ومـرحّـبـاً
فـــإذا « خليلُ اللّه » جـــا للقِـــاء
وأراهُ « أمــتــهُ» : أراهُ مــقـــامَــهَـــا
فى جنة « الأخـرى » بغْـيـر خـفــاء
وأراهُ شْـيــئـــا غـــاب عنى وصــفــه
وأراه مـــأوى مـــحــتـــد الأكــفـــاء
ورأى «النبى» عــجــائبــاً فى طيّــهـــا
لـلـكـافـــــريـن بـه ولـلأعـــــــداء
وصـــلا إلى : المعْــمــور: ثم لســـدْرة
المنتْـــهى عنْ صـــادق الإيحـــاء
وهنا ترى « جــبْــريل» ذا مــتــأخــرا
عنْ ســـيْـــره فــــرنا لـهُ بنـدَاء
أكـــــذاك يتـــــرك كـل خل خـلـه
عنْد الـشّــدائد ؟ لا تـكُن مــتـنـائى
فـــأجـــابه هذا مُـــقـــامى يا « أخى »
وســـأحـــرقنّ إذا تركت بقـــائى

لكن تقدمْ للعُلا فى مأمن
والله إنّك أرفع الأشياء
حجُب «لطه المصطفى» قد فتّحت
فاجتازها فى مأمن ورخاء
قد زجّ فى بحْر من النّور الذى
هو نور وجه الله خير ضياء
ورأى الإله بغْير كيْف رؤْية
بالْعين فاقْطعْ مرْية الجُهلاء
ودنّا من «المحْمود» جلّ جلاله
قال : التحّيةُ خالقَ الأرْجاء
قال : السّلام عليْك يا خير الملا
أهلا بمطلوبى وعز سمائى
أبْدى له كل الفضائل ساقياً
كأس المحّبة «أحمْدا» بصفاء
غمس «النّبىّ» ببحر مٰاء جلاله
ووقاره وسقاه بالصهباء
فرض «الإلهُ» على «النّبىّ» لأمّة
خمسين فرضا واجبى الآداء

حظى النّبى مـــحـــمـــد بإلهـــه

وقـــد انثنى المحـــفـــوف بالأدلاء

وإذا بمُوسى قـــال : كم فـــرْضـــا لكم؟

فـــأجـــابه : خـــمـــســـون للأداء

قـــال : ارجعْ فـسله كى يخـفف ربكم

فـــرضـــا فـــأنتمْ أضْـــعف الأبْناء

رجـع الــنـبـى إلـى الإلــه مـكـررًا

بقـــيتْ خـــمْس بخـــيـــر جـــزاء

نـزل الـنبىّ وقـــــدْ تحلى بالـعـــلا

وأتى بخْـيـر شـريعـة : ؟ سـمـحـاء

والســـر فى تزويد مـــوسى أحـــمـــدا

كى يســتـــريح مـــحـــمـــد النبـــلاء

ركب النبى مـــفـــاخـــرا ببـــراقـــه

جـــبـــريل ســـار به بغـــيـــر تناء

نظرا « لعـــيـــر » فى الطّريق فـــإذ به

هـو من قُـــريش وقـــــدرنا بنداء

قـــالوا لذلك صـــوْتُ « طه أحـــمـــد »

والله خـــصـــصـــهم من الشـــهـــداء

عـرف « النبى » صـفـات عـيـرهـم لكى

يـجـلـى قـلـوبـهـم مـن الأصـــــــداء

ذهب « النبى » إلى مــقــر مــقــامــه

ومكـانُه بـحــــرارة الـبــــرحـــــاء

لما بـدا فلـقُ الـصــــبــــاح بنُوره

وأتى - أبو جــــهْل أبو الجُـــهـــلاء

قص النبى عليْــه خــبــرا صـــادقـــا

فــــــــأتــاهْ بـالآبـاء والأبْـنـاء

حــقـــا « أبو جــهْل» له الجــهـل انتـمى

جــــهْل المعـــارض ذاك أفْــحش داء

قــد كــذبوه ســوى « أبى بكْر» فــقْــد

وافــاهُ بالتــصــديق والإصــغــاء

قــدْ لقــبـوك « أمــينهم » يا مــصْطفى

مــذ كنت طفـــلا صـــادق الأنبـــاء

فـعــلام قـامــوا ينقـضـون كــلامـهـم ؟

عــجــبــا ! يجئ البــرء بالإشــفــاء ؟

قـــالوا : بعـــيـــد أن يكون مــقـــاله

فـــأجـــابهم : يأتيكُمُــو نصــرائى

يأتيكمـــو « عـــيـــر » لكم هو ناظرى
فـــسلوه يخْـــبـــرْكم بتى الأنبـــاء
جلسـوا لمقـدم « عـيـرهم » فـتـأخـرت
والشـــمس قـــد حـــانتْ إلى الإخـــفـــاء
فـــدعـــا « النبى » إلى « الإله » فـــردها
حـــتّى أتى « عـــيـــرٌ » لهم بولاء
قـــالوا : رأيْنا ركْـــبـــه ليـــلا ســـرى
قّطعـــوا لســـان الزور للجـــهـــلاء
هَى مِنْ عَـــوَاطِف وَامق مُـــتَـــوَسِّل
ناءَ فَـــجَـــاءَ بهَـــا كَـــمَـــا التَـــأسَـــاءِ
منِّى إلى « رَوح النّبى » تَحـــيُـــة
فى مـــدحـــه هى من دليل ولائى
لا عـــيب إن ند الفـــصـــيح فكونهـــا
فى المصْطفى قـــدْ زاد منْ خـــيـــلائى
« مَـــوْلاَىَ » عُـــذْراً فى سَـــمَـــاح إنَّنى
لَكَ جَـــدُّ مُـــشْـــتـــاق وتلْك عَـــزَائى
مَـــالىِ وَمَـــدْحُ « أبى المكارم » كُلهَـــا
منْ ألفِـــهَـــا حَـــتُى انْتـــهَـــاء اليَـــاء

يَارَبّ صل علَيْه صُحْبة آله
وَالصّحْب والأحْبَابِ والخُلَصَاء

مَا أشْرقتْ شمْس وَمَا قَالَ الْفَتى
يَالَيْلَةَ الْمعْرِاج والإسْراءِ

ورحل عنا ترجمان القرآن

د. أحمد كمال أبو المجد

من غرائب الطبيعة الإنسانية، أننا لا ندرك قدر النعمة التى ننعم بها إلا حين تزول عنا، ولا نعرف قدر من نحبهم ونجلهم إلا بعد أن يفارقونا . . ولقد كان الشيخ الشعراوى ـ عليه رحمة الله ـ نعمة كبيرة أنعم الله بها على أهل هذا العصر، فعرفها أكثرهم، وأنكرها أقلهم. ولكننا ـ نحن المحبين له والعارفين قدره ومكانته ـ ظللنا نتعامل معه كما لو كان «ظاهرة» باقية، لا نتصور غيابها، ولا نهيّىء أنفسنا لزوالها. وحتى حين كان يمرض وتعتل صحته، كنا نقصر أحيانا فى السؤال عنه والدعاء له، والاطمئنان عليه، متصورين ـ رغم إيماننا بأن لكل أجل كتاب ـ أن مآل مرضه إلى زوال، وأن عافيته لن تلبث أن تعود إليه، وأنه لن يلبث أن يطل علينا فى مجالسه ولقاءاته ومن خلال شاشات التلفزيون . . يحمل مصحفه فى يده، وتعلو نبرات صوته بكلمات الله، يفجر بها ينابيع الخير فى النفوس، ويملأ طباق الأرض علما ونورا ترتوى منهما العقول والقلوب . . وحين فاجأنى النبأ الفاجع صباح الأربعاء يوم السابع عشر من شهر يونيو، استولى علىّ شعوران لم أملك لهما دفعا: أولهما: شعور بالألم الهائل لأن شواغل الحياة، وماأكثرها، حالت بينى وبين رؤيته فى أيام مرضه الأخير، وقد كنت ـ علم الله ـ شديد الحرص على لقائه وسماع كلماته النيرات، والمشاركة ـ مع محبيه ـ فى إيناسه والالتفاف حوله والدعاء له. أما

الآخر: فإشفاق على أهل هذا العصر من أمتنا، ونحن نرى العلماء العاملين من أهل البصيرة والصدق والصلاح، يرحلون عن عالمنا واحد بعد الآخر، تاركين الجيل يتلفت حوله باحثا عن أخلاف يحملون راية العلم والهداية والفلاح.. ففى أقل من عامين رحل عن عالمنا الشيخ جاد الحق، والشيخ خالد محمد خالد، والشيخ محمد الغزالى.. عليهم رحمة الله ورضوانه..

وبين هذا الحزن وذلك الإشفاق، عدت استرجع مكانة الشيخ الشعراوى وأتأمل أثره الهائل فى حياة هذا الجيل.. وتذكرت أنه كان لى يوما شرف تقديمه - منذ أعوام - إلى المشاركين فى لقاء شعبى واسع فى حلوان فلم أجد فى وصفه خيرا من أن أقول إنه «ترجمان القرآن لأهل هذا الزمان»، وكنت ولا أزال - أو من بأن هذا هو جوهر العطاء الذى قدمه الشيخ الشعراوى لأهل الأرض أجمعين، فلقد جاء - رحمه الله - فى عصر تباعد الناس فيه عن كتاب الله - اشتغالا بالدنيا، أو افتتانا بمذاهب وأفكار ليس للإيمان فى عالمها مكان.. أو عجزا عن التواصل مع كلمات الله، بسبب الجهل الفاضح بأبجديات اللغة العربية التى نزل بها القرآن.. حتى صار كثير من الموقنين الصالحين لا ينهلون من فضل القرآن إلا فضل تلاوته و التعبد به، دون أن تنفتح عقولهم وقلوبهم لاستقبال النبأ العظيم والدخول إلى العالم الرحب الفسيح الذى فتحه الوحى للإنسان حين تنزل عليه بكلمات رب الناس.. ولكن لله حكمة هو بالغها، وله - سبحانه - جنود السموات والأرض.. فجاء الشيخ الشعراوى بادئا كما يبدأ مئات العلماء والمعلّمين.. أستاذا للبلاغة.. يحمل رسالة الأزهر الشريف هنا فى مصر.. ثم فى المملكة العربية السعودية.. ويشارك فى الحياة السياسية منذ شبابه، مؤكدا تواصل الدين والدنيا، وارتباط التقوى الفردية بالفلاح الجماعى. وفجأة، وبغير تدبير منه، يتفجر العلم، وتفيض البصيرة،

وينطلق اللسان، وينتشر النور على لسان ذلك العبد الصالح المبين، فإذا بالسدود العالية التى كانت تحول بين كلمات الله وبين عقول وقلوب الملايين، تنهار سدا بعد سد، وإذا بالوحى يعود فى وجدانهم واضحا متألقا يحمل نبض السماء، وإذا بالثقافة الإيمانية تصبح لغة الجماهير، مكتسحة فى طريقها أو شاب الفكر المادى، وبقايا الشك والعرقية والإلحاد وقسوة القلوب، وإذا القرآن العظيم يتحول. على لسان ذلك الداعى المؤمن من أحرف يرددها أكثر الناس فى غير وعى ولا فقه، إلى حياة كاملة ملؤها الخير والعطاء والفلاح والإصلاح بين الناس..

ويمتد هذا الفيض عابرا جميع الحدود، وتصل به كلمات الوحى حية مشرقة إلى أركان الدنيا الأربعة.. وإذا المسلمون على امتداد عالمهم الواسع ينهلون منه، كل على قدر طاقته، حتى إذا جاء شهر رمضان من كل عام، إذا بأحاديث الشيخ الشعراوى توشك أن تتحول فى حياة الناس إلى نافلة من نوافل الثقافة والعلم الدينى، يلتف حولها الرجال والنساء والأطفال، يجددون بها إيمانهم، ويتعرفون من خلالها إلى كتاب ربهم..

لهذا كله، ما كاد النبأ الفاجع يتردد بين ملايين المسلمين، حتى أحسوا جميعا بالخسارة الفادحة.. ووقفوا يتأملون سيرة هذا الإمام الكبير الذى عاملوه فى حياتهم معاملة «الظاهرة الكونية» حتى أذهلهم ذلك عن مكانتة الإنسانية الخاصة التى احتلها فى سماحة وبشر وتواضع فى عقولهم وقلوبهم.. وفى قريته من ريف مصر العربية المسلمة خرج مئات الألوف من محبيه ومريده، وعارفى فضله يعلنون على الدنيا كلها أن الأرض لن تخلو أبدا من قائم لله بحجة، وأن هذه الشعبية الهائلة التى اكتسبها ذلك الرجل الربانى الصالح ليست إلا تعبيرا عفويا تلقائيا لا تغيب دلالته عن حقيقة روح الامة

وتوجهها الثقافى، وأنه توجه إيمانى إنسانى حاسم لاراد له ولا صارف عنه. . وأن واجب العلماء والأمراء جميعا أن يحرسوا هذا التوجه، وأن يوظفوا الطاقة العظيمة التى يفجرها لما فيه خير الامة ونهضتها، وأن يقوموا على حمايته من الذين يوجهون إليه السهام المسمومة، إسرافاً فى التخوف من عواقبه، أو جهلا وسوء ظن بمقاصده. . وأن يحرسوه كذلك من الذين تغيب عنهم هذه المقاصد فيوجهوه وجهة الجمود والتراجع بدلا من التجديد والتقدم، ووجهة الهدم بدلا من وجهة الإحياء والبناء. . وهكذا، كان الشيخ الشعراوى ـ أنزله الله منازل الصديقين والصالحين. ترجمانا للقرآن بين أهل هذا الزمان، وكانت شعبية الكاسحة تعبيرا أمينا عن حقيقة التوجه الإيمانى لهذه الأمة. وهكذا نفعنا الله به فى موته، كما نفعنا به فى حياته، وتلك آية الصالحين المصلحين.

ذكرى محاسن الأفذاذ
تتحول إلى عزاء للنفس

د. إبراهيم بدران

الحمد لله رب العالمين الذى قال فى محكم كتابه ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عمل وهو العزيز المغفور﴾ (سورة الملك آية : ٢) .

أنه يعز على النفس أن تنعى من تحب ، ولكن ذكر محاسن الأفذاذ تتحول إلى عزاء للنفس خاصة عندما تفقد صديقا وداعيا ومجاهدا فى الله . نعم لقد كان صديقا ـ فقد تعرفت عليه من الصديق أحمد فراج فى برنامج نور على نور وحضرت جلساته فى منزل شيخنا المرحوم الأستاذ سيد جلال فى جلسات دينية زاخرة . وتعمقت صداقتنا يوم حلفنا اليمين لتولى مسئولية الوزارة فى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٦ وكان مجلسى فى اجتماعات المجلس بجواره ـ صلة روحية وعلاقة فى الله وللوطن وصلت إلى محبة واحترام وإعجاب ، صلة أسأل الله أن لا تنقطع حتى نلقى المولى فى رضاه وإحسانه وعدله .

لقد كان من حظى أن أجاوره منذ حلف اليمين ولكن علاقتى به تعمقت عندما أصيب بالتهاب رئوى كاد يسبب هبوطا فى القلب مما استدعى احتجازه فى غرفته بوزارة الأوقاف ولازمته حوالى ثلاثة أسابيع ـ ونجحنا فى إيقاف عادة التدخين المستمر التى استمرت معه أكثر من أربعين سنة وتسببت فى تليف شديد فى الرّئتين وفى تلك المرحلة من حياتنا أذكر له بعض الكلمات والمواقف

فبعد أن حلفنا اليمين ـ قلت له يا مولانا هذا طريق جديد ادُع لنا أن يوفقنا حتى نقوم بواجبنا فى مرضاته وكان رده « الله أقام العباد حيث أراد» ودعوتى أن يلهمنا سبيل التوفيق ويبعد عنا طريق الخطإ فإن من سلك مسالك التهم اتهم ولا فضل له .

والصورة أو الموقف الذى لا أنساه عندما دعتنا أستاذتنا الدكتورة زهيرة عابدين وزوجها أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو الفضل فى احتفال بمعهد صحة الطفل فى سفح الهرم وحضر الاحتفال مولانا المرحوم الشيخ عبدالحليم محمود وكان شيخا للأزهر الشريف وصلنا وكان الإمام عبد الحليم محمود فى انتظارنا فما كان من الشيخ الشعراوى وهو وزير الأوقاف إلا أنه انحنى وقبل يدى شيخ الأزهر وأخذ بيده حتى أجلسه ومكث يحاكيه جالسا على الأرض بين يديه صورة لا أنساها فى توقير التلميذ مهما علا لأستاذه ومعلمه وقمة الاحترام لإمام المسلمين، وما لا أنساه ذلك اليوم أنه دُعى الشيخ عبدالحليم للترحيب بالشيخ الوزير فقال «لن أتحدث اليوم لأننى أحب أن أستمع لكلام محمد الشعراوى» .

واستطرادا لرحلة الوزارة التى انتهت فى أكتوبر سنة ١٩٧٨ وفى جلسة الوداع خاطب الشيخ الشعراوى رئيس الوزراء المرحوم ممدوح سالم فقال له «ياسى ممدوح بك الحمدلله الذى أذاقنا طعم هذه الوظيفة (أى الوزارة) حتى لا تشتهيها أنفسنا بعد اليوم وحتى نعود إلى ما كُلفنا به من الدعوة إلى الله ما تبقى من العمر» وقد وفّى بوعده لقد كان تخصص الإمام فى اللغة العربية وأصولها وكان لهوايته فى الشعر الجاهلى باع طويل فقد كان رضى الله عنه يفخر بأنه يحفظ مئة ألف بيت للشعر علاوة على تجويده للقرآن الكريم والتفسير والأحاديث وكان ضليعا فى سير الأنبياء وأخبار الصحابة والصالحين والعلماء

لقد كان أيضا مستمعا متميزا مدققا لكل جديد يسمعه فى أى علم يمر فى طريقه يستفسر ويسأل حتى يتبين كل ما يحتاجه لتفهم الموضوع من المتخصصين - يحفظها ويمحّصها ويهضمها ثم تراه فى أول طور بعدها يستشهد بهذه المعلومات والحقائق العلمية لإبراز قدرة الله وعلمه الذى وسع كل شىء حتى وصفه بعض العارفين بفضله أنه كان قرآنا مفسرا يمشى على الأرض.

لقد كانت له القدرة على تبسيط المعلومات وأفاد الدعوة فى جميع الأقطار الإسلامية بإسلوب لم يحاكيه فيه أحد من قبل. ومنذ بداية برنامج نور على نور الذى كان يتولاه الأستاذ أحمد فراج منذ الستينات والناس ينتظرون ساعة حديثه - إصغاء وإعجابا وتعلما - تجتمع الأسر والجماعات يتمتعون بتخريجاته القرآنية التى لم يسبقه إليها أحد ولم يجدها أحد فى المراجع والتفاسير وكأنها إلهاما وفتحا إلاهيا أنعم الله به عليه. وكانت له القدرة على تبسيط المعارف الدينية وربطها اجتهادا والعلوم الدنيوية فى جرعة يسعد بها العالم ويستوعبها الرجل البسيط ويقترب من نفس الطفل كما يجتذب عقل الراشد. كل ذلك فى صورة جاذبيته الكاريزمية الجذابة وقدرته على التقرب إلى العقل وتجميع القلوب بلغة مبسطة حتى فى أصعب المواضيع ومُكنَتُه من اللغة العربية وتعمقه فى تخصصه فى أصول تركيبات الكلام ومعانى الحروف وتأثيرها فى المعنى وتداخل الألفاظ وتسلسل المعانى وربط الحقائق فى مختلف المقامات والسور تلك كانت موهبة الشيخ الشعراوى حتى وصفه البعض بأنه «فارس من فرسان الكلم» مستغلا هذه القدرة الجبارة فى الاستنباط والتخريج للمعانى القرآنية ببساطة وجاذبية نادرة تقبلها الآذان وتستوعبها العقول.

لقد كان - رحمه الله - بوتقة ربانية انصهر فيها الدين والإيمان والثقافة والمعارف لغة وتاريخا وعلما، مزيج فريد له مذاق خاص يجتاح القلوب وكان

مدرسا موهوبا وداعيا جاذبا لكل من يستمع إليه فى سلاسة و «خفة روح» وتعليقات مرحة ، يطلقها لتأكيد معنى يرغب فى غرسه فى أسماع الناس ليعملوا به إن كان خيرا ويجتنبوه إن لم يكن كذلك .

لقد كان ديدنه التوفيق الإلهى الذى يوفق إليه نقاء السريرة والإيمان المطلق والإخلاص للدعوة والتفانى فيها ـ ولقد استمر رحمه الله فى أداء مسئوليته التى سُخِّر لها واستخدمه ربه فيها حتى أتاه اليقين وفقد النطق وهو يذكر الله .

رحم الله شيخنا وأستاذنا الشيخ محمد متولى الشعراوى عالما لا يجود الزمان بمثله داعيا إلى الله بإذنه وفضله وقرآنه محققا المحبة بين أهل وطنه وإن اختلفت عقائدهم ومؤكدا الوسطية المعتدلة التى دعا إليها الإسلام فى كتاب الله وسنة رسوله .

اللهم أكرم مثواه وطيب ثراه واجعله مع الشهداء والقديسين والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

اللهم عوض أمته الإسلامية والعربية وأهله فى مصر كلها وأسرته المصابة ومحبيه وعارفى فضله ـ اللهم ألهمهم الصبر والإيمان لقبول قضاء الله الواقع ـ اللهم ألزمهم القيم التى كان يدعو لها ، اللهم جمّع شمل العلماء المسلمين وأهل العلم من العلماء المختلفين وألّف بين قلوبهم ليسيروا على نهجه ويكملوا طريقه ويخرجوا ما عندهم من علم ليرشدوا الأمة المصرية والعربية إلى طريق الرشاد ـ رحمة للعباد حتى تستمر الدعوة إلى الله الحق على أيدى كل قادر .

وفى جنة الخلد أيها الصديق الداعى المخلص لله .

الفهـــرس



رقم الإيداع : ٨٩٥٣/ ٩٨
الترقيم الدولى : I.S.B.N 977 - 09 - 0474 - 0

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى - ت:٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مذكرات إمام الدعاة

« والحق أن هذه المذكرات هى دروس زاخرة بتجارب الحياة ، التى يجب على كل عاقل أن يستفيد منها ماينفعه فى دينه وفى دنياه ».

فضيلة الإمام الأكبر
د. محمد سيد طنطاوى
شيخ الأزهر

« لقد امتد عطاء الشيخ الشعراوى إلى أكثر من نصف قرن من الزمان، فى عصر اختلطت فيه المفاهيم واضطربت فيه الرؤى الدينية ، فكان الشيخ الشعراوى نجما ساطعا يضىء فى سماء الأمة ، يجلجل صوته بالحق فيزهق باطل الأدعياء».

د. محمود حمدى زقزوق

« رحم الله شيخنا وأستاذنا الشيخ محمد متولى الشعراوى عالما لايجود الزمان بمثله داعيا إلى الله بإذنه وفضله وقرآنه محققا المحبة بين أهل وطنه وإن اختلفت عقائدهم ومؤكدا الوسطية المعتدلة التى دعا إليها الإسلام فى كتاب الله وسنة رسوله »

د. إبراهيم بدران

« لم أجد فى وصفه خيرا من أن أقول إنه « ترجمان القرآن لأهل هذا الزمان ». وكنت - ولا أزال - أومن بأن هذا هو جوهر العطاء الذى قدمه الشيخ الشعراوى لأهل الأرض أجمعين ».

د. أحمد كمال أبو المجد

تصميم ورسوم محمد حجى

دار الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)